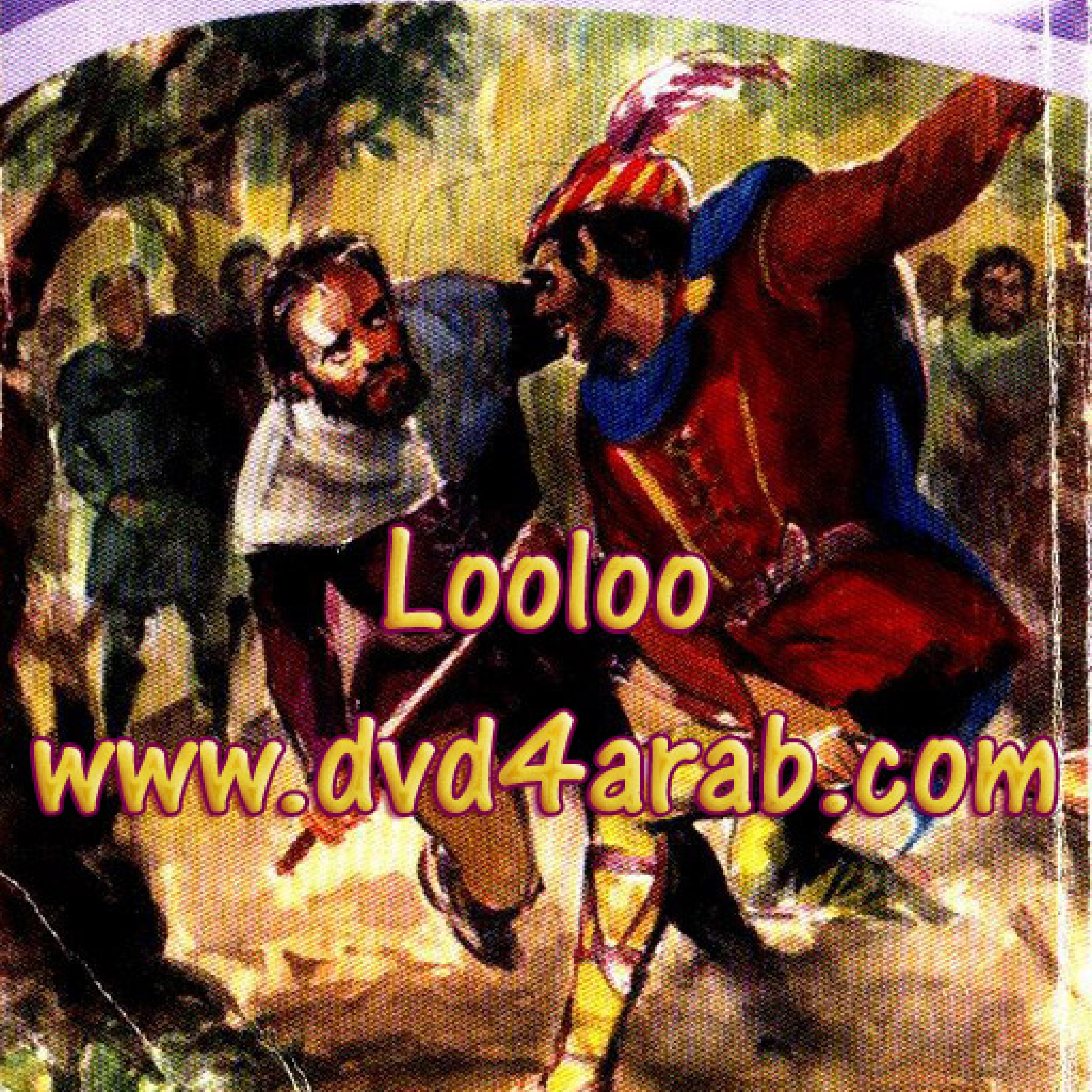
روايات مصرية للجيب

21

فانتازيا

لا تدخلوا شيروود!



مقدمة

اسمها (عبير عبد الرحمن)

إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها ، ورشاقة اسمها ..

إن (عبير) ليست جميلة بأىّ مقياس ، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات ، وليست عالمة أو أديبة أو ممثلة ، ولا تملك مؤهلاً دراسيًّا محترمًا ..

إن (عبير) هى إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة .. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها .. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة ..

لقد قابلت (عبير) (شريف) .. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم ـ والأهم من هذا ـ العبقرى .. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًّا ولا تملك أىّ ذكاء .. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذى ابتكره ، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء ، وإعادة برمجتها فى صورة مغامرات متكاملة ..

ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًّا .. ولأن عقلها مزدحم

بأبطال القصص ومواقف القصص ؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة ..

(عبير) سترى القصص التى عشقتها .. ولكن مع تحوير بسيط : إنها ستكون جزءًا متفاعلاً فى كل قصة ! ستطير مع (سوبرمان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان) .. وتغوص فى أعماق المحيط مع كابتن (نيمو) ..

وتزوج (شريف) (عبير) .. ربما لأنه أحبها حقًّا .. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد .. ونعرف أن (عبير) حامل ..

وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا) .. ترى الكثير وتعرف الكثير .. وفى كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة ..

إن (عبير) تنتمى إلى (فانتازيا) .. أرض الخيال التى صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة .. وأعاد تقديمها لها من جديد ..

(فانتازيا) هى المهرب من براثن الواقع .. وكل الوجوه التى تتغيَّر ..

(فانتازيا) هى الحلم الذى صاغته عبقرية الأدباء

على مرّ السنين .. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه .. لكن هذا فى مقدورنا الآن ..

لسوف نرحل جميعًا مع (عبير) إلى (فانتازيا) .. نضع حاجياتنا وهمومنا فى القطار الذاهب إلى هناك ..

هو ذا جرس المحطة يدق .. وهدير المحركات يدوى .. إذن فلنسرع !

★ ★ ★

١ ـ عودة إلى الواقع ..

إن الأمور تتحسن يا (عبير) ..

هذا ديدن الحياة ، تقتم حينًا حتى يحسب المرء أن السعادة لفظة لا وجود لها .. كيان ديناصورى انقرض أو لم يوجد قط ، وتشرق حينًا حتى يخال المرء أن الحزن ضيف غير مرغوب فيه ، عاجز عن اختراق الأسوار الحصينة التى أحطنا بها سعادتنا ..

غادر (شريف) المستشفى ، وكان أحسن حالاً .. إن أية حال أفضل من الموت على كل حال ، و (شريف) لم يمت ..

لكن نصائح الأطباء كانت تحاصره فى كل صوب ، وكان يعرف أن عليه ألا يحزن أو يفرح أو يأكل أو يشرب أو يدخن أو يجهد نفسه أو يسهر أو يسافر أو يتنفس أو يقرأ .. فيما عدا هذا يمكنه أن يفعل أى شىء يشتهيه ..

كان من الأشخاص ذوى الكبرياء الذين يمقتون أن يمرضوا .. يمقتون أن يشفقوا على أنفسهم أو يروا الشفقة فى عيون الآخرين .. ثم إنه كان ملولاً لا يطيق سماع نفس العبارات عن إجهاد النفس ، وعن ادخار صحته لأسرته .. إلخ ..

ثمة شرخ حدث فى حياة (شريف) ، ومن الواضح أن كل ما فى السوق من أنابيب لاصقة عاجز عن إصلاح هذا الشرخ ..

قال لنفسه فى ضيق ، وهو يداعب أزرار الكمبيوتر :

- « ليكن .. كانت لى حياة .. وها هى ذى توشك على الانتهاء .. ليس هذا حدثًا فريدًا .. نفس الشىء حدث لكل من سبقونى ، ولسوف يحدث لكل من تلونى .. »

كأن حياته كانت طبقًا مليئًا بحبات الفول السودانى .. أعطوه إياه ثم قالوا : انته منه على مهلك ، ولنلتق بعد هذا ..

ولدهشتهم فوجئوا بأنه فرغ من التهام كل ما فى الطبق خلال دقيقتين ولربما قبل أن يديروا ظهورهم ..

لقد فرغ كل الطبق ..

لكنه لن يصارح أحدًا بهذا ..

* * *

وفتحت (عبير) الباب ، لتجد (صفوت) صديق (شريف) الأثير البدين الذى يهوى الكمبيوتر والدُهن ، والذى كان رئيسها فى العمل قبل أن تتزوج ، وما زال لا يشعر بارتياح كبير لهذه الزيجة ..

كان يلهث ، ويجفف العرق على جبينه ، وسألها :

- « مساء الخير يا (عـ ...) يا مدام (عبير) .. هل (شريف) متيقظ ؟ »

ابتسمت فى إنهاك ، ودعته إلى الدخول ، وأشارت برأسها أن نعم ..

- « وهل هو أحسن حالاً ؟ »

- « اكتئاب .. لا أكثر .. »

وكان (صفوت) يعرف هذا ويتوقعه .. كل الناجين من جلطة تاجية أو مخية يمرّون بحالة اكتئاب شديدة .. هكذا قال الأطباء ..

ودخل الشقة عطرة الرائحة ، التى تحمل لمسات أنثوية لا شك فيها ، وخطر له أن (عبير) زوجة على كل حال .. زوجة تعرف المطلوب من الزوجة وتؤديه جيدًا ..

وكان (شريف) فى غرفة الكمبيوتر عاكفًا على تعديل سطور برنامج ما ، وكان عصبيًّا يخطئ كثيرًا ، وهو يشعر أن قناة أفكاره لم تلن بعد ..

حياه (صفوت) وجلس جواره يتأمل الشاشة ، وكان البرنامج مكتوبًا بلغة التجميع شديدة التعقيد ، ويكفى خطأ واحد فيها كى ينهار كل شىء ويضطر المرء للبدء من جديد ..

ـ « أى برنامج هذا ؟ »

ـ « أحاول إجراء تعديلات معينة فى (دى ـ جى ـ ٢) .. »

ـ « مثل ؟ »

ـ « مثل القدرة على وضع مواصفات الحلم قبل البدء فيه .. مثل اختيار موضوع الحلم نفسه والمشاركين فيه .. »

فى نفاد صبر ، صاح (صفوت) :

ـ « مرة أخرى ؟ معلوماتى هى أن (دى ـ جى ـ ٢) هذا بلا مستقبل ، ولن يكون له عائد تجارى .. ثم إنك لم تعد متحمسًا له .. حسبت أن ما يبقيك هنا برغم مرضك أمر ذو شأن كبير .. »

وأخرج من جيبه قطعة من الشيكولاتة ، طوحها إلى فمه ، وقال :

ـ « كنت قد طلبت منك برنامجًا مهمًّا ، وقلت إننى قادر على تسويقه بسعر لا تحلم به .. طبعًا مع عمولة لا بأس بها لى .. إن السمسار يكسب فى جميع الظروف ، فماذا فعلت به ؟ »

ابتسم (شريف) فى مرارة ، وقال :

ـ « متى ؟ لقد كنت موشكًا على الموت منذ أسبوع .. »

ـ « وأنت الآن بحالة تسمح لك بتعديل البرامج ، فماذا عنى ؟ »

ـ « سأحاول أن أبدأ غدًا .. »

وساد الصمت برهة ، ثم حاول (صفوت) أن يقطعه بسؤال ..

ـ « هل المدام ما زالت مولعة بهذا ؟ »

ـ « إلى حدّ الإدمان .. توجد مملكة سحرية اسمها (فانتازيا) خلقها الجهاز فى عقلها الباطن ، وهى لم تستطع قط أن تقبل حقيقة أن عالمنا هو عالمها الحقيقى وليس (فانتازيا) هذه .. »

ـ « ولم يحدث شىء مؤس ؟ أعنى .. أما زلت مطمئنًا إلى كون هذا الاختراع مأمونًا لا يمس الحالة العقلية ؟! »

تأمل (شريف) البرنامج قليلاً ، ثم قام بتسجيله والخروج منه ، وقال :

ـ « حتى هذه اللحظة لا شىء .. ما زالت (عبير) تعرف الفارق بين الواقع والخيال ، وما زالت تمارس حياتها باتزان معقول .. لكن لو كان الإدمان أثرًا جانبيًا لهذا الاختراع ، فقد تأذت (عبير) بالفعل .. »

نظر (صفوت) إلى منضدة فى ركن الغرفة تكدست

فوقها الكتب ، وعلى الكعوب استطاع أن يلمح عبارات مثل (مجلد الوطواط ـ ٨) .. (سيف بن ذى يزن) .. (جلجاميش) .. (أرخص ليالى) .. (عطيل يعود) .. (زنيت) .. إلخ .

قال فى تهكم :

ـ « يبدو أنك صرت مثقفًا فجأة .. »

هزّ (شريف) كتفيه :

ـ « لست أنا بل (عبير) .. هى لا تكف عن القراءة ، وقد بدأت تستعير الكتب من المكتبة العامة لأن ما لديها لم يعد يكفى .. »

ـ « لكنها تقرأ خليطًا غير متجانس من الكتب .. لا أدرى ما يجمع بين (الوطواط) و(عطيل يعود) .. »

ـ « أولاً : ما يجمع هذه الكتب بادية الاختلاف هو أنها جميعًا تندرج تحت فن (الرواية ـ الأقصوصة ـ القصة القصيرة ـ المسرحية ـ القصة المصوّرة) ..

ـ ثانيًا : لا تنس أن الخيال هو محور كل عمل أدبى ، و(عبير) تفتش عن الخيال كما يفتش عالم ذرى عن

(البلوتنيوم) .. لو لم تجد خيالاً لتوقف المفاعل عن العمل ..»

أخرج (صفوت) كيسًا من البطاطس المقلية ، وراح يطوح بالرقائق إلى فمه .. والواقع أن شراهته تتضاعف يومًا بعد يوم ..

سأل (شريف) :

- « كراك كرااتش .. أعترف .. كرااش .. أننى أحسدها عل كل العوالم الساحرة التى عاشت فيها .. هل قابلت (طرزان) و (جيمس بوند) و ..... ؟ »

- « مرارًا ! وفى الرحلة الأخيرة كان (هولمز) و(بوارو) ومس (ماربل) و(ميجريه) و(إيلرى كوين) كلهم فى قصة واحدة ، يبحثون عن سبب مصرع الليدى .. لا أذكر اسمها .. هذا ما قالته لى .. »

- « وهل قابلت (روبين هود) ؟ »

نظر له (شريف) هنيهة .. ثم قال وهو يطفئ الجهاز :

- « فى الحقيقة لست متأكدًا .. لقد صارت قادرة على تشغيل الجهاز وحدها ولا بد أنها رأت ما يفوق كل ما حكته لى .. »

- « إذن جرّب أن تريها (روبين هود) .. هذا امتحان بسيط لقدرات جهازك هذا .. ألم تقل إنك ستحدد الحلم سلفًا ؟ »

فكر (شريف) ، ثم قال :

- « لا بد من أن تكون قد قرأتْ عنه أولاً .. ثانيًا : لا بد أن أجد موجة مخية مميزة لـ (روبين هود) ، وأحددها .. سيكون هذا هو الاسم الكهربائى له ، والذى سيبدأ الحلم كله .. »

* * *

وكان (شريف) بارعًا ..

ربما أكثر مما ظن بنفسه ..

وجاءت الأمسية التى دعا فيها (عبير) بإلحاح شديد كى تربط أقطاب الجهاز إلى رأسها ، وتغمض عينيها ..

قالت له محتجة :

ـ « لكنى لم أهو قصص (روبين هود) كثيرًا .. »

قال لها فى حماس :

ـ « لكنك قرأت عددًا كافيًا منها ، ولدى الآن ما يلزم لبدء الحلم .. »

ثم أخذ شهيقًا عميقًا ، وأردف :

ـ « فليكن غرضك التجربة لا الاستمتاع إذن .. »

تنهدت مستسلمة ، فلم تكن راغبة فى إثارة غيظه .. ليس بحالة قلبه الراهنة ، وأغمضت عينيها ...

وسمعت صوت الضغط على الزرّ ، ثم لم تعد هنا .. صارت هناك ...

* * *

٢ ـ لا تدخلوا شيروود !

وقال لها (المرشد) وهو يساعدها على اجتياز أجمة كثيفة من الشجيرات :

ـ « من هنا يبدأ المرح .. هذه الغابة هناك .. هل ترينها ؟ »

نظرت إلى الأفق ، حيث كان صفٌ من الأشجار يسدّ الطريق .. أشجار تفصلها أشجار ، وتعلوها أفنان متخمة بالأوراق ، وتحتها أخشاب كثيفة خضراء ، وباختصار .. كان ما تراه هو اللون الأخضر ولا شىء سواه .. لكنه اللون الأخضر الذى يتخذ ستين درجة مختلفة .. أخضر زرعى يلتحم بأخضر فاتح ، وأخضر باهت وأخضر إلى السواد أقرب ، وأخضر فوسفورى ، وأخضر مائع كلون المشروبات المزيفة التى تباع فى الموالد ، وأخضر مزرق ، وأخضر شبيه باللون الأخضر .. إنها غابة .. غابة جدًا لو صح التعبير ..

قالت له وهى تنشق الهواء الأخضر فى انتعاش :

ـ « وكيف لا أراها ؟ »

قال ببرود وهو يعيد قلمه إلى جيب بذلته السوداء :

ـ « المفترض على الإنسان العاقل الحريص على حياته ألا يجتازها .. وكل طفل فى (نونتنجهام) يعرف أن عليه أن يغسل قدميه قبل النوم ، وألا يختار غابة (شيرِوود) .. لكن لو لم تدخليها لما حدثت مغامرة أصلاً .. »

ـ « ما شاء اللّه .. وماذا يوجد فى (شيرِوود) ؟ »

ـ « كل عصابات الخارجين على القانون تعيش هنا .. وعلى رأسهم طبعًا الأخ (روبين هود) .. »

وجدت صخرة ، فآثرت أن تجلس عليها لتريح ساقيها ، وسألته :

ـ « من هو هذا الـ (روبين هود) ؟ ومن مؤلف القصة ؟ »

قال فى استياء وهو ينظر لساعته :

ـ « للأسف لن أفعل شيئًا سوى أن أفسد الأمور .. يمكنك أن تجيبى عن السؤال الأول بعد انتهاء المغامرة ، أما السؤال الثانى فلا إجابة له ! »

صاحت مندهشة :

ـ « لا مؤلف للقصة ؟ »

ـ « ليس هذا غريبًا .. إن (روبين هود) خليط من مجموعة من الأساطير الشعبية ، بعضها حقيقى .. وبعضها خيالى .. فقط قام المؤرخون الإنجليز بجمعها وإعطائها شكل قصة طويلة متناسقة .. »

ـ « غريب هذا .. كنت أحسبها من تأليف سير (والترسكوت) .. »

ـ « بل هو أحد من جمعوا شتات الأسطورة ، وقد فعل هذا مع فارس أسطورى آخر هو (إيفانهو) .. لا عجب فى هذا .. هل يمكنك معرفة مؤلف (أبو زيد الهلالى) أو (ألف ليلة وليلة) ؟ هل يعرف الفرس مؤلف (الشاهنامة) ؟ ثمة قصص تولد من الوجدان الجمعى لشعب بأسره ، ولا يمكن أبدًا العثور على طرف الخيط ..»

ونظر إلى السماء حيث كانت بعض الغربان تحوم ، وأردف :

ـ « إن (انجلترا) تملك (روبين هود) و (إيفانهو) ، بينما تملك (إيرلندا) (روب روى) ، وتملك (أسكتلندا) (ويليام والاس) .. وتجدين أن قسط الحقيقة ضئيل جدًا وسط هذه القصص ، لكننا لا ننكر أنهم وجدوا فعلاً .. »

سألته وهى تطوّح قدميها لاهية :

ـ « والزمن ؟ »

ـ « آه .. »

وأخرج الدليل الذى يستخدمه من حين لآخر للاهتداء إلى معالم (فانتازيا) ، وقال :

ـ « نحن فى القرن الميلادى الحادى عشر .. فى ذروة الصراع بين النورمان ـ القادمين من (فرنسا) ـ والسكسونيين سكان (انجلترا) الأصليين .. إن النورمان قد كونوا عصبة حاكمة وأرستقراطية خاصة بهم ، وهم يسومون السكسونيين الخسف ، ويعاملونهم أسوأ معاملة .. »

ـ « إن (روبين هود) هى ـ ببساطة ـ قصة كفاح الإنجليز الأبطال ضد الفرنسيين الأوغاد .. هذا قبل أن تكون (انجلترا) انجلترا .. وتكون (فرنسا) فرنسا .. »

ثم أعاد الدليل إلى جيبه ، وسألها :

ـ « أية استفسارات ؟ »

ـ « لا أظن .. »

وهنا صفر شىء بجوار رأس الرجل ، وانغرس فى الشجرة التى وقف جوارها .. كان هذا سهمًا جيد الصنع ، راح طرفه الحرّ يهتزّ كأنه مثبت إلى ياى ، حتى همدت حركته تمامًا ..

ـ « آه ! يبدو أن أوان الرحيل قد حان ! »

قالها (المرشد) ، وراح يثب بين الأشجار متواريًا ..

وللمرة العشرين تجد (عبير) نفسها وحيدة ، عليها أن تتولى أمر نفسها من الآن فصاعدًا ، وهى لحظة تهابها دومًا فى كل قصة ..

* * *

فى تؤدة تمشى وسط الأشجار ، تحنى رأسها للأغصان المتشابكة ، ثم ترفعه ثانية وهى تصغى لشجار الطيور .. هذه غابة إنجليزية تختلف بالتأكيد عن غابات (طرزان) الإفريقية ، وغابات الشبح فى (الملايو) .. غابة وحوشها هى الغزلان .. والطيور نقارة الخشب .. والسناجب ..

سرّها هذا الشعور ، وللحظة تخيلت أنها (سنو هوايت) فى أحد أفلام (ديزنى) البهيجة ، تحلق العصافير حول رأسها ، وتتواثب الأرانب الصغيرة محاولة اللحاق بها ..

لكن منعها من ذلك شيئان :

أولاً : كانت تشعر بقلق حقيقى مما يختبئ لها بين هذه الأشجار ..

ثانيًا : كانت ترتدى ثياب الرجال ..

نعم .. إنها متخفية فى ثياب رجل لسبب لا تدريه .. إن (دى - جى - ٢) يعلم بالتأكيد .. هى ترتدى ثياب تاجر ثرى .. متأنقة مزخرفة كطاووس ، وفى نطاقها يتدلى كيس واضح من ملمسه ورنينه أن ما به ذهب ..

كان الإغراء شديدًا للفتك بها .. ما كانت لتطلب إغراء أكثر لقطاع الطرق ، وهو لغز لم تستطع فهمه .. لكنها ستترك للأحداث التالية أن تفسره ..

وأخيرًا دوّى صوت النفير :

هذه علامة غير سارّة .. تعرفها من القصص جيدًا ، وتعرف أن معناها هو أن (الناضورجية) قد لمحوها وأحسوا بها ..

وبعد ثانيتين .. وثب شبح أخضر عظيم الحجم من فوق شجرة ، ليقطع الطريق عليها ..

لِمَ لاَ ؟ أليسوا قطاع طريق ؟!

كان مشعرًا كقرد ، ولحيته الطويلة ذهبية اللون المتصلة بشاربيه ، تعطيه طابعًا أسطوريًا كأنه أسد آدمى .. أما ثيابه وقلنسوته فكانت خضراء اللون .. كذا كان حذاءه .. وكذا كانت عيناه ..

وفى يده الغليظة كان يحمل سيفًا لا بأس بحجمه أبدًا ..

قال لها وهو يطوّح السيف من يد ليد ببراعة :



وبعد ثانيتين .. وثب شبح أخضر عظيم الحجم من فوق شجرة ، ليقطع الطريق عليها ..

- « مكانك أيها التاجر الثرى الذى اقتادته قدماه إلى (شيروود) .. إن ما نسألك إياه ليس بالكثير .. ماذا عن هذا الكيس المعلق فى نطاقك ؟

تدافعت الكلمات إلى لسان (عبير) دون أن تقدر على السيطرة عليها ، وهى لم تحب قط ما قالته ، لكنه وجد السبيل إلى لسانها :

- « إذن أنتم تلكم العصابة التى لا عمل لها إلا ترويع الشرفاء الأبرياء .. من السهل أن تكون شجاعًا وأنت تحمل هذا السيف ! »

وكان ما قالته بصوت رجولى حاولت أن يخشوشن ، فكانت أفضل نتيجة هى أن خرج كصوت غلام مراهق ..

كادت تلطم الخدين بسبب حماقتها .. أهذه كلمات تقولها ضحية لمن يهددها سيف ؟ كانت تفضل أن تقول كلمات أقل شجاعة وتحديًا ، لكن ما باليد حيلة .. (دى - جى - ٢) الأحمق يرغمها على أن تقول هذا ..

نظر لها .. كأنما يرى مجنونًا ، وحك ذقنه فى حيرة ..

ثم عاد يكرّر الأمر بنفاد صبر :

ـ « نقودك أو حياتك أيها التاجر الثرى ! »

فى شمم بصوتها المراهق .. قالت :

ـ « لا هذا ولا ذاك أيها اللص ! »

بدت عليه الحيرة .. فهو لم يعتد هذه الشجاعة من التجار البرجوازيين الذين يجرى الجبن والشحم فى عروقهم مجرى الدماء ، وهو لا يمضى أسبوعًا دون أن يقابل التاجر الذى يموت هلعًا بمجرّد رؤيته ، أو الذى يفقد التحكم فى جهازيه البولى والهضمى ..

نظر إلى أعلى ، وصاح بصوته الغليظ :

ـ « تعالوا يا رفاق .. توجد مشكلة ها هنا .. »

ولم تدر (عبير) متى رأت الأشجار تتهاوى من حولهما .. لم تكن هذه أشجارًا ، بل عددًا آخر من قطاع الطرق الخضر ..

مجموعة غريبة بحق من الرجال .. منهم الهزيل .. كالقملة والضخم كالثور ، وبادى الوداعة كالحمل وشديد

الشراسة كالنمر ، والأغرب أن الوحيد الذى لم يرتد الأخضر بينهم كان رجلاً أصلع الرأس ، حلق شعره ليترك دائرة كاملة حول مركزها ، وكان يرتدى ثوبًا بنيًّا خشنًا عقد حول خصره حزامًا هو حبل غليظ ..

كانت على قدر لا بأس به من المعرفة كيف تعرف أن هذا راهب .. لكن أى راهب هذا الذى يحمل (شومة) غليظة ، ويعيش مع قطاع الطريق ؟

التف الرجال حولها يرمقونها فى دهشة عدائية .. وراح أحدهم يسلك أسنانه بخنجره منتظرًا نهاية المحادثة ليبقر بطنها .. ولاحظت أن العامل المشترك الأكبر بين هؤلاء جميعًا هو جعبة السهام على الكتف ، والقوس المتدلى من ذراع واحدة ..

قالت لهم فى ثبات :

ـ « أريد أن ألقى زعيمكم (روبين هود) .. »

ـ « هذا مطلب غريب أيها التاجر الثرى .. »

ـ « أريد أن أواجهه رجلاً لرجل ! »

من جديد تبادلوا النظرات ، ورسم أحدهم علامة الجنون على صدغه ، وقال :

ـ « ليس لدى (روبين هود) وقت لهذا المزاح .. إنه يلتهم خمسة من أمثالك قبل الإفطار .. »

من جديد كرّرت بلهجة آمرة :

ـ « وأنا أطالب بهذا كى أتأكّد من أنكم لستم بالجبن الذى أظنه .. بحق الملك (ريكرودس) قلب الأسد أطالبكم بهذا .. »

تبادل الرجال النظرات :

ـ « إن التاجر الغريب يتصرف بثقة غير طبيعية .. ثقة توح بأنه (مسنود) بشكل ما .. ثم هو يذكر اسم (ريكرودس) وهو اسم له قدسيته خاصة لدى هؤلاء الرجال ..

ولا شعوريًّا انفتحت صفوفهم لتسمح لها بالمرور ، وإن لم يكفوا عن النظر الحادّ والتحدّى ..

وقال الراهب :

ـ « أين (روبين) ؟ »

ـ « إنه فى الكوخ .. يستريح قليلاً .. »

ـ « إذن فلير هذا الغريب ، وليحكم بما يريد .. »

وتجتاز (عبير) الصفوف .. إن عددهم لا يقل عن المائة بالتأكيد .. رجال أشداء حقًا لم يأكلوا اللحم إلا من الغزلان التى يقتنصونها ، ولا يشربون الماء إلا من الينابيع .. ولا يعرفون لحافًا إلا السماء الصافية .. من الطبيعى أن يكونوا أقرب إلى وحوش البرية ..

والكوخ الذى تحدثوا عنه لم يكن كوخًا فى الواقع .. كان سندياته غليظة وارفة ، مساحة جذعها أدنى لمساحة كوخ صغير ، وكانت فى الجذع فتحة تسمح بالدخول والخروج ..

وصاح صائح مناديًا (روبين هود) كى يخرج ..

وفى اللحظة التالية رأت نفسها أمام (روبين هود) العظيم ..

★ ★ ★

٢ ـ (روجر) القبيح ..

لم يكن (روبين هود) كما رأته وسيمًا ..

لم يكن قويًا ..

بالأحرى لم يكن شابًا على الإطلاق ..

كان رجلاً فى الخمسين من عمره ، زحف الصلع على منتصف رأسه ، وغزا الشيب النصف الباقى .. كان تكوينه العضلى قويًا يشى بأنه كان محاربًا لا يُشق له غبار يومًا ما من عشرين سَنة ..

أما الآن فهو يشبه المرحوم أباها فى كل شىء ، فلم يبق إلا أن يحمل البطيخة الشهيرة تحت إبطه ، والجريدة الخالدة تحت إبطه الآخر ..

وكان له كرش صغير لا بأس به أبدًا .. يعلو ساقين ناحلتين مشعرتين كما تظهران من تحت التنورة التى يرتديها ..

باختصار : أصابها مرأى البطل بخيبة أمل لا حد لها ..

فرك عينيه اللتين احمرتا من فرط النوم ، وحكّ صدره ثم تساءل عن سرّ كل هذا الضجيج ..

ـ « هذا التاجر الثرى يتحدّى (روبين هود) شخصيًا ..

ـ « هووووم .. غريب هذا .. »

وتأملها فى اهتمام .. شعرت بارتباك شديد ، ودعت اللّه أن يكون تنكرها متقنًا .. إن المرأة لا تستطيع أبدًا أن تبرع فى التنكر كرجل ، بينما يسهل على الرجال ـ حتى (إسماعيل يس) نفسه ـ أن يتنكروا فى صورة امرأة ..

قال (روبين هود) بصوت مُرهق :

ـ « لماذا لم تنتهوا منه بدلاً من إيقاظى ؟ يصعب علىّ أن أقبل كل التحديات التى تواجهنى من أشخاص متحمسين .. »

فى شجاعة ليست لها صاحت (عبير) :

ـ « برهن لى أنك لست الجبان الذى يتوارى وراء رجاله ..

ابتسم وتحولت الابتسامة إلى ضحكة ، والضحكة تحولت إلى سعلة (خشخش) بها صدره قبل أن يبصقها ..

- « هيه هيه هيه ! أنت جسور أيها الفتى .. لكنى بالفعل لست بالجبان الذى يتوارى وراء رجاله .. لقد قضيت حياتى كلها أثبت فيها أننى لست كذلك .. إن عدد الندوب فى جسدى تفوق ما فى وجهك الأملس من شعر .. »

- « ما زلت مصرًا على أن أدافع عن مالى .. »

نظر (روبين هود) حوله ، ثم صاح بالرجل كثيف الشعر الذى كان أول من قابلته (عبير) بين هؤلاء القوم :

- « (جونز) الصغير .. عصاك ! »

ما شاء الله .. إن (جونز) الصغير هذا هو أضخم وغد رأته فى حياتها ، وهى تسمية لم يرد بها إلا الدعابة ..

طوّح (جونز) عصاه فى الهواء ، فتلقفها (روبن) وأدارها كمروحة حول نفسها ، ثم اتخذ وضع قتالٍ بارعًا ..

- « هات عصاك أيها الراهب (تاك) ..

طوّح (تاك) بعصاه فى الهواء نحو (عبير) ، فتلقفتها وإن شعرت بأنها تتلقف قطارًا لا عصًا .. كيف يحملون هذا الشىء ؟

- « والآن اصنعوا دائرة يا رفاق .. »

وتراجع الرجال صانعين دائرة واسعة ليقف المتقاتلان فى وسطها .. رجل عجوز قوى وفتاة متنكّرة .. هذا قتال يصعب معرفة الفائز فيه ..

وبدأت المعركة..

* * *

كما هى العادة أشعر بحاجة ماسة إلى أن أقدّم مجموعةً من الصور توضح سير القتال .. إن هذا أكثر بلاغة واختصارًا ، لأن هناك شيئين لا يمكن للقلم أن يعبّر عنهما أبدًا : القتال والرقص ..

لكنى سأحاول على كل حال ..

سأحاول أن أسمعك لهاث الغريمين .. صوت ضربات

العصى التى تصطدم تارة بمثيلتها فتحدث صوت ارتطام الخشب المهيب ، أو تصطدم تارة بلحم أحدهما فيكون لها صوت مكتوم كئيب ..

سأحاول أن أصف لك العرق المنحدر على الجباه ، والأسنان البادية من بين الشفاه المتشققة ، والنظرات الشرسة المتحفزة ..

سأحاول أن أصف لك رقصة الأقدام على الكلأ ، تتراجع وتتقدَّم ، وتكرّ وتفرّ ..

الحق أن (روبين هود) لم يكن خصمًا سهلاً ، لكن (عبير) كذلك كانت تملك قوة جسدية غير معقولة ، ولم تدر سببها قط ..

تطير عصا (روبين هود) فى الهواء راسمة نصف قوس ، فتنحنى كى تتفاداها ثم تكيل له ضربة بعصاها بين الضلوع .. كراش !

يتوقف (روبين) عن القتال ويقهقه :

- « الحق أنها ضربة جميلة .. ولكن ماذا تقول عن هذه ؟ »

ويهوى بعصاه على كتف (عبير) فيدوّى صوت العظام الموشكة على التفتت .. لكن (عبير) تتحسس كتفها فى رضا ، وتقول ضاحكة :

- « إنها رائعة .. أنت تجيد استخدام العصا بحق .. »

وتهوى على رأسه بالعصا ، لكنه يتفاداها بعصاه ..

* * *

لقد دام القتال ساعة كاملة ..

بدأ الملل يتسرَّب إلى نفوس الواقفين ، وقد شعروا أن هذه المعركة لن تنتهى إلا يوم القيامة .. تثاءب البعض ، وراح آخرون يتسلّون بالعبث فى آذانهم أو أنوفهم ..

هنا فقط توقف (روبين هود) بحركة درامية .. طوّح بعصاه إلى (جونز) الصغير ، وفرد ذراعيه إلى جانبه وصاح :

- « كفى أيها التاجر الثرى .. أشهد أنك رجل قوى حقًا .. »

كان التعب قد حلّ بجسد (عبير) تمامًا .. لهذا طوّحت بعصاها بدورها نحو الراهب (تاك) ، وفى اللحظة التالية سقط الاثنان على الكلأ يلهثان وقد غمرهما العرق تمامًا ، وراحا يلهثان كحوتين قذفهما المحيط إلى الشطّ .. واحتاج الأمر إلى ربع ساعة ، وكثير جدًا من العصير الذى قدم لهما فى إناءين من فخار ، حتى استطاعا أن ينهضا مترنحين ..

بيد كقبضة الموت صافحها ، ولكنهما بين لوحى كتفها ..

- « أنت رجل شجاع .. والشجاع - على الأرجح - شريف .. »

ثم :

- « ما اسمك أيها الفارس الشريف ؟ »

- « أنا .. أنا (روجر ويليام) .. »

كان هذا هو الاسم الذى تداعى إلى لسانها ، وبدا لها مقبولاً غير مفتعل .. هنا قال الراهب (تاك) فى شك :

- « هذا اسم له رنين (ساكسونى) .. إنك منا إذن أيها التاجر ولست منهم .. فلماذا جئتنا على رياح التحدى ؟ »

- « لأننى تمنيت أن أكون منكم بحق .. »

وفى حركة أريحية فتحت (عبير) كيس الذهب الذى تحمله فى نطاقها وبعثرت القطع فى الهواء ، فالتمعت فى ضوء الشمس الغاربة وهى تهوى كمطر براق فوق الرءوس ..

من الغريب أن أحدًا لم يهتم بالتقاط قطعة واحدة من المعدن البراق .. إن هذه الطريقة تبدّد الفتور دومًا ، لكنها - فى هذه المرة - لم تكن ذات تأثير على الإطلاق ..

وقال (روبين هود) :

- « لا أحد هنا يبالى بالذهب أيها التاجر الشجاع .. »

- « سبحان الله ! لقد كدتم تحشّون رقبتى منذ قليل من أجل هذا الكيس .. أنتم إذن لا تحبون إلا الذهب المسروق .. »

قال الراهب (باك) ضاحكًا :

- « نحن نحب الذهب ، ولكن كى نمنحه للفقراء .. هذا هو أسلوبنا هنا : نسرق الأثرياء ونعطى الفقراء ..»

وقال (جونز) الصغير :

- « إن الأثرياء دائمًا من النورمان ، والفقراء دائمًا من الساكسونيين .. وهكذا تجد لعملنا طابعًا وطنيًّا لا بأس به .. »

تساءلت وهى تنظر حولها :

- « وكيف تعيشون إذن ؟ »

- « ماذا يريد المرء إلا أن يأكل إذا جاع ، ويرتوى إذا عطش ، ويجد المأوى إذا احتاج إليه ؟ نحن ننال هنا كل ما يمنحه الذهب من دون ذهب .. »

وتحمس القوم فأنشدوا أحد (البالادات) القديمة التى يستحيل فهم معناها إلا لأساتذة اللغة الإنجليزية ..

و (البالاد) هو نوع من المواويل ذات الإيقاع السهل السريع ، يمتاز ببساطة لغته ، وامتلائها بالأحزان والشجن والنكد الأزلى .. »

لوَّح (روبين هود) بعصاه ليخرس القوم .. ثم هتف :

- « هل من جاحد ووغد زنيم هنا لا يقبل انضمام (روجر ويليام) إلى إخوان الغابة ؟ »

وكان هذا سؤالاً من الطراز الذى لا يمكن الإجابة عنه بـ (نعم) .. إن من يجب بـ (نعم) هو - ببساطة - يعترف بكونه وغدًا زنيمًا جاحدًا ..

قال الراهب (تاك) :

- « فلندعه باسم مناسب .. »

- « نعم .. (روجر) القبيح .. »

كذا صاح أحدهم ، فوافقه آخر :

- « نعم .. إنه قبيح كالأبالسة .. فليكن هذا اسمه !»

ودوت الصيحات هاتفة :

- « القبيح .. القبيح ! »

قبيح ؟ لم تستطع (عبير) هضم هذا اللقب قط .. إنها أنثى متنكرة فى ثياب رجل ، ومن الطبيعى أن تثير الريبة لأنها أجمل من اللازم ، أو أنعم وأرق من اللازم ، لكن هؤلاء الإخوة يجدون أنها قبيحة حتى بالنسبة لسحناتهم المريعة ..

لكنها ابتلعت خواطرها ، وشاركت الجموع فى الاحتفال المرح ..

* * *

وحين أخلدت الشمس إلى النعاس أخيرًا بعد يوم مُرهق ، لم ينم فيه قطاع الطريق ..

لقد أشعلوا نارًا عظيمة ، وراحوا يقومون بالشىء الطبيعى الذى يفعله الناس حول النار .. راحوا يشوون وعلاً ضخمًا ينزّ الدهن بلا انقطاع ، فيتطاير الشرر فى فرقعات متتالية ..

الشىء الثانى هو بعض الرقصات الخشنة الجديرة بقطاع الطرق .. رجل يرتدى الفراء ليبدو شبيهًا بالحلوف البرى ، بينما رجل آخر يحاول قتله فى بسالة ..

كان (روبين هود) جالسًا جوارها يلتهم (ريشة) مكسوة باللحم هى أول ما خرج من شواء .. هذا طبيعى .. إن الزعيم ينال أول قطعة ناضجة من اللحم فى كل مكان ..

قالت له :

- « ما هو برنامجكم اليومى هنا ؟ أعنى ماذا تفعلون غير انتظار الحمقى الذين لم يسمعوا عن (شيروود) ؟!

جرّد ما بقى من لحم على قطعة العظم ، ثم طوّح بالعظمة كى يلتقطها كلب أسود عملاق كان هناك ، وقال :

- « نضايق المأمور .. ونهاجم رجاله .. »

كانت تفكّر طيلة الوقت ..

لماذا تنكّرت بثياب الرجال ؟ ولماذا جاءت هنا ؟ من أسوأ الأمور فى هذه الحياة .. أن نفعل أشياء لا ندرى لماذا نفعلها .. للمرة الأولى تصل إلى هذا الجزء المتقدم من المغامرة .. دون أن تفهم حقيقة وضعها ..

وقررت أن تنتظر حتى الصباح لتفهم أكثر ..

* * *

٤ ـ هكذا بدأ كل شىء ..

عند الفجر مشت وحدها مبتعدة عن الرجال الذين كانوا يغطون فى نوم عميق ، كله شخير وتثاؤب والتهام لطعام النيام الخفى ..

مجموعة من الحمقى ـ قالت لنفسها ـ إذ يثقون بها بعد معرفة ليلة واحدة .. لو كان (روجر) القبيح يحمل نية فى قبح وجهه ؛ إذن لكانت نهاية هؤلاء القوم .. من حسن حظهم ، أنها هى وليست سواها ..

مشت بين الأشجار شاعرة بالغريزة ، أن هناك غديرًا قريبًا لا بد من واحد ..

أخيرًا وجدته ، قطعة من الجمال الصافى الساكن ـ كما يرسمه فنانو (ما قبل رافائيل) الإنجليز .. هذا كلامى أنا وليس كلامها طبعًا..

يمكنها أن تغتسل .. لكن لا .. سيحدث ما يحدث

دائمًا فى هذه القصص ، ويصحو أحدهم ليدرك حقيقة الأخ (روجر) القبيح .. كلا .. ستكتفى بغسل وجهها ويديها ، ومن الواضح على كل حال أن هؤلاء القوم لا تزيد علاقتهم بالماء على هذا ..

خاضت فى الماء حتى ركبتيها ، من ثم شمّرت السروال الضيق كى لا يبتلَّ .. هنا راعها أن ساقيها مكتنزتان بالعضلات أكثر من اللازم .. مشعرتان كساقى ماعز .. غريب هذا !

كانت مياه الغدير تعكس وجهها .. وللمرة الأولى تدرك أنها بحق قبيحة كالأبالسة .. لم تكن (عبير) ملكةَ جمال .. لكن كان لها وجه مريح يختلف عن هذا الذى تراه .. ثم إنها اعتادت أن تؤدى كل قصة لها بوجه يختلف عن وجهها ، وهو فى العادة وجه مليح ..

كان ما تراه هو وجه رجل فظّ ، طال سالفاه المشعثان ، وبرزا من جانبى رأسه كالغيلان .. وكانت له لحية شنيعة ..

بالمناسبة : هل هذه اللحية مثبتة بالصمغ أم بـ ..... ؟



كان ما تراه هو وجه رجل فظّ ، طال سالفاه المشعثان ، وبرزا من جانبى رأسه كالغيلان .. وكانت له لحية شنيعة ..

مستحيل ! إنها ثابتة تمامًا .. إنها لحية حقيقية لا شك فيها ..

وارتجفت لهول الاكتشاف ..

إنها هنا لا تلعب دور الرجل ..

الحقيقة هى أنها رجل بالفعل !

وبدأت معهم ..

لهذا كانت بهذه القوة فى صراعها مع (روبين هود) أمس ، وهكذا تحملت ضرباته .. لم تكن هذه المرة الأولى التى تجرب فيها مشاعر وتكوين الرجال العضلى ، فقد سبق لها أن كانت جنديًا قويًا فى جيش (رعمسيس) ، وذلك حين لم يجد (دى ـ جى ـ ٢) حيلة أفضل لجعلها تشترك فى (قادش) .. لكن ما مبرره اليوم ؟

شىء ما يخبرها أن قصتها أكثر تعقيدًا من هذا .. أكثر تعقيدًا من تاجر متحمس للانضمام إلى عصابة (روبين هود) ..

على كل حال ، غسلت وجهها كما أرادت ، وعادت إلى حيث الرجال الذين أنهكهم الطعام والرقص والسهر ..

* * *

صحا الراهب (تاك) فاتجه إلى حيث غسل وجهه بالماء البارد ، ثم عاد ليجلس جوارها ، وهو لا يكف عن التثاؤب .

سألته (عبير) بصوتها الرجولى الجديد :

ـ « لماذا يسمونك باسم (تاك) ؟ اسم غريب لراهب .. »

ـ « ليس اسمًا بل نعتًا .. إننى أجيد الضرب بالعصا الثقيلة على الرءوس التى آذاها الصداع ، حتى لا يسمعوا منى إلا صوت (تاك) .. (تاك) .. »

ـ « ولماذا ؟ أعنى كيف أن (روبين هود) عجوز متداع إلى هذا الحد ؟ إن سمعته الرهيبة توحى بشاب أكثر فتوة من كل شباب (انجلترا) .. »

ضحك فى شفقة ، وقال :

ـ « لقد كان كذلك قبل أن يذهب للحرب .. إن عشرين عامًا تغيّر الكثير .. لكن سمعة المرء لا تموت بسهولة .. »

سألته وهى تستريح فى جلستها :

ـ « هلا كلمتنى أكثر عن (روبين هود) ؟ »

* * *

فى الربع ساعة التالية ـ بينما الرجال نيام ـ حكى لها الراهب (تاك) كل شىء عن هذا المغامر الجسور غريب الأطوار ..

قال لها :

ـ « أنت تعرف يا (روجر) القبيح كيف أن (النورمان) يعاملوننا نحن (الساكسون) بغطرسة وتجبّر .. لقد عبروا (المانش) وأخضعوا (انجلترا) العزيزة للحكم المستبد الذى يمارسه أمراؤهم ..

« وكان أبو (روبين هود) ـ وهو السير (ألفريد هنتجتون) ـ يعيش فى (شيروود) ، يمارس حياة مسالمة مهادنة .. لم يكن يحاول الاصطدام بسادة (النورمان) ، كما أنه لم يحاول أن يظفر برضاهم أو يستميلهم إليه ، فقط كان يتمنى أن يُمنح الفرصة كى يربى ولديه الحبيبين (روبين) و (ماريان) .. وشعاره فى الحياة : عِشْ ودع سواك يعيش .. »

لكن الشر لا يعتنق هذا الشعار أبدًا .. إبق فى بلدك ولسوف يجىء الشرّ إليك حتمًا .. انعزل فى أرضك ولسوف يطلبها الشر .. اغلق عليك دارك ولسوف يأتيك الشر قارعًا الباب ، مطالبًا بحق الأجداد فيها ..

« وكان مأمور (نوتنجهام) النورمانى المتغطرس - ونعرف أن اسمه (روجر) كاسمك - يلعب لعبة ملتوية خبيثة ، غرضها أن يزيح ملك البلاد المحبوب (ريكرودس) قلب الأسد ، ويتولى أخوه (جونز) الحكم بدلاً منه .. »

« وكان الملك (ريكرودس) خارج البلاد فى تلك الآونة ، ولم يدر بما يُدبَّر من وراء ظهره ، وبسهولة تم شراء ولاء الأمراء واحدًا واحدًا .. »

« المشكلة الوحيدة بالنسبة لـ (روجر) كانت هى السير (ألفريد) .. كان بحاجة إلى شراء ولائه بأى ثمن .. لماذا ؟ لأن للسير (ألفريد) مكانته وهيبته تجعلان من قبوله شديد الأهمية .. »

« وفى ذلك اليوم المشئوم - من خمسة وعشرين عامًا - اتجه المأمور (روجر) مع رجاله إلى قصر السير (ألفريد) ، ولم يكن (روبين) وقتها هناك .. »

« عرض (روجر) على السير أن ينضم إليه ، فكان الأخير مهذبًا كالعادة يحاول أن يسوس أموره ، وقال كلامًا كثيرًا على غرار (أنت ضيفى المحترم والملك ريكرودس مليكى) .. لكن المأمور لم يكن ليقبل بشىء غير الخضوع التام وإعلان الولاء .. »

« كان لا بد أن تتصادم الإرادتان فى اللحظة التى حاول سير (ألفريد) أن يؤجلها قدر الإمكان .. »

وفى النهاية قال فى ثبات :

- « سيدى .. لقد آليت أن أطيع الأسد لا الذئب ! »

« ولا يمكن فهم هذه العبارة إلاّ إذا تذكرنا أن (روجر) كان يلقب بالذئب ، وذلك لغلظته وشراسته وتوحشه التام ! »

« كانت تلك هى نقطة الختام ، وسرعان ما استدار المأمور راحلاً ، لكنه عزم على أن يعود عندما يتوغل الليل ، وفى هذه المرة لم يكن وحده .. كان معه خمسون من رجاله بكامل سلاحهم ، وكان يبغى الانتقام .. »

« حقًا كانت معركة عنيفة استبسل فيها آل (هنتجتون) ، لكن الكثرة تغلب الشجاعة كالعادة ، واستطاع المأمور أن يقتل السير (ألفريد) ويخطف (ماريان) ، ويفرّ إلى قلعته الحصينة .. نعم .. هو الذى فرّ وليس (روبين) .. لكن بعد ما حرق قصر السير (ألفريد) .. »

« أما عن (روبين) البائس الذى فقد أهله فى دقائق ، فقد دخل غابة شيروود) .. تعلم درسًا قاسيًا هو أن الغلبة للقوة ، والقوى هو صاحب الحق دائمًا .. »

« كانت الغابة أكثر رفقًا بـ (روبين) من كل أكف البشر الممدودة ، وهناك عرف أن الطبيعة أمه ، وبلونها المختار يتدثر .. كان شعاره اللون الأخضر الذى يواريه بين الأغصان .. »

« ولم تلبث غابة (شيروود) أن صارت مأوى الهاربين من الطغيان فى كل أنحاء (انجلترا) .. كل من فقد كل شىء .. يحمل متاعه على عصا فوق كتفه ، ويقصد (شيروود) طالبًا الانضمام إلى (روبين) الذى صار اسمه (روبين هود) .. »

« وببطء نمت العصابة الفريدة من نوعها .. عصابة لا همّ لها سوى إحالة حياة المأمور إلى جحيم .. السطو على الأثرياء ، وتوزيع حصيلة السطو على الفقراء .. »

« وفى كل يوم كانت قرى بأكملها ترسل خيرة شبابها ، كى ينضموا إلى ثائر الغابة الشجاع ، الذى اشتهر ببسالته وبراعته المطلقة فى الرماية بالسهام .. »

« جرّد (روجر) المأمور حملات عديدة لتطهير الغابة ، لكن الأمر كان أكبر منه .. »

« إن إخوان الغابة كانوا كالأشباح أو الشياطين ، لا تراهم ولا تسمع لهم صوتًا ، وفجأة تنطلق السهام من كل صوب لتنغرس فى الحناجر ، فإن بقيت حيًّا وثبوا من فوق الأشجار ليمزقوا أحشاءك .. ثم إنهم يملكون نظامًا متقدمًا للإنذار المبكر والاستشعار عن بعد ، كفيلاً بجعلهم يعرفون كم أرنبًا بريًّا عبر الغابة فى يوم بعينه .. »

تساءلت (عبير) وهى تتأمل الثوار النائمين الذين لا يبدون خطرين إلى هذا الحدّ ..

- « وهل قضوا عشرين عامًا فى هذا الهراء ؟ إن عشرين عامًا تكفى للاستيلاء على حكم قارة كاملة وليس (انجلترا) فحسب .. »

ابتسم الراهب (تاك) :

- « لم يكن (روبين هود) إلا مجرّد ثائر شجاع ، ولم يكن قادرًا على تنظيم ثورة ، ثم إن ولاءه لم يتزعزع نحو الملك (ريكرودس) قلب الأسد .. الملك الذى كان يجهل كل شىء عن ألاعيب المأمور .. »

- « ولم يعرف الملك شيئًا طيلة عشرين عامًا ؟ »

- « بل عرف .. وجاء إلى الغابة فى ثياب تاجر ثرى مثلك .. كل من يحاول التنكر هذه الأيام يضع ثياب تاجر ثرى .. وتحرشنا به ، لكنه أعلن عن حقيقته ، وكافأنا على ولائنا ، وأعاد لـ (روبين هود) أملاكه واعتباره ، وهكذا عمّ السلام ! »

نظرت (عبير) إليه فى غباء وقالت :

- « و (توتة توتة فرغت الحدوتة) .. ماذا نفعل نحن إذن وأين نحن ؟ نعيش أحداث قصة انتهت منذ

عشرين سنة ؟ نمارس الأحداث التى ظهرت بعد كلمة (النهاية) ؟ »

قال الراهب وهو يحفر بعصاه خطوطًا على الأرض :

- « بالطبع لا .. نحن نعيش نفس الأحداث من جديد ، لأن الزمن يكرر نفسه ، لأن الحمقى لم ينتبهوا فى المرة الأولى .. »

« لقد رحل (روبين هود) مع الملك للحرب ، وعاش بعضنا هنا وعاد البعض إلى قريته .. وخلال غياب (روبين هود) عاد المأمور الوغد يمارس سلطاته ، واستولى على جلّ ما كان يملكه قبل أن يصحح الملك (ريكرودوس) الأوضاع ، وهكذا عاد (روبين هود) من غزواته ، ليجد أن الوضع لم يتغير كثيرًا عما كان قبل رحيله .. مازال المأمور طاغية متجبرًا ، ومازلنا نحن نقطع الطريق ونتوارى فى الغابة ، ومازال السلام عزيز المنال .. »

« الفارق الوحيد هنا هو أن (روبين) قد شاخ .. وكذلك فعل المأمور .. لكن الأول شاخ من أهوال الحروب ، والثانى شاخ من الملذات والطعام الدسم .. »

- « وأنتم كذلك شختم طبعًا .. »

- « بالتأكيد .. لكن حياة الغابة جعلت السنين أكثر رفقًا بنا .. »

ساد الصمت برهة ، ثم سألته :

- « وماذا عن (ماريان) ؟ »

- « إنها الآن عجوز شمطاء ، لكن المأمور ما زال يحتفظ بها فى سجن بقلعته وهو يعتقد أنها ورقة ضغط لا بأس بها على (روبين هود) .. »

- « وسبب لاستمرار الحرب ما دام الرجلان حيين .. »

- « بها أو بدونها لن يتغير شىء .. إن (روبين) والمأمور شبيهان بالقط والفأر .. بالنار والماء .. بالقيظ والقرّ .. والحرب بينهما لن تنتهى أبدًا .. إلا بوفاة واحد منهما .. »

فى إشفاق نظرت إلى (روبين هود) الغارق فى النعاس ، والذى فتح فاه إنهاكًا فسال منه خيط من لعاب ..

غريب حقًا أن يكون هذا هو بطل الساكسونيين وأملهم فى الخلاص .. فلو رآه الشعراء الشعبيون لترددوا ألف مرة قبل تأليف (بالاد) جديد يصف بطولاته ..

* * *

سألت الراهب وهى تضغط على بطنها :

- « ما هو طعام إفطاركم هنا ؟ »

أشار إلى الغابة بحركة أريحية ، وقال :

- « كل شىء .. لو اصطدت أرنبًا فبالهناء والشفاء .. لو وجدت ثمارًا على شجرة فبها ورحبت .. »

كادت تصارحه أنها تصاب بالإسهال لو أكلت فاكهة على الريق ، وأنها تمقت الأرانب لأنها تذكرها بالفئران، ثم آثرت الصمت ..

نظرت حولها ثم سألته :

- « هل لى من جواد ؟ »

- « بالطبع .. لدينا عدد كبير من الجياد المسروقة .. ولكن .. لأين ؟ »

- « سأبحث عن طعام يصلح فى (نوتنجهام) .. »

- « خذ الحذر .. إن رجال المأمور فى كل مكان .. وهم لا يمزحون .. »

ابتسمت وأشارت إلى ثيابها ..

كانت هى الكائن الوحيد الذى لا يلبس اللون الأخضر هنا ، ثم إن منظرها يختلف عنهم بكثير .. منظر التاجر الثرى المتأنق الذى يغرى بالاحترام أو بالطمع أو بالحسد أو بالازدراء ، لكنه لا يغرى بالشك أبدًا ..

واقتادها إلى خميلة تقف جوارها بعض الخيول الإسكتلندية ترعى العشب ، فانتقت حصانًا ووضعت السرج على ظهره ..

وبوثبتين كانت هناك .. ليس ركوب الخيول مشكلة فى (فانتازيا) طبعًا ..

- « خذ الحذر يا (روجر) القبيح .. ليكن الشك ميثاقك ! »

- « لا تخف أيها الراهب .. »

وانطلقت بالحصان خارجة من غابة (شيروود) ..

* * *

٥ ـ شىء مريب ..

لماذا قرّرت أن تذهب إلى (نوتنجهام) ؟

لا أعرف وهى لا تعرف .. هل يعرف أحدكم ؟

* * *

تمشى بحصانها وسط الأسواق المزدحمة المفعمة بالفقراء والرعاع والشحاذين ، يتشاجرون من أجل هذا أو ذاك .. عربات خشبية مغطاة بالقش يقف فوقها البائعون ببضاعتهم ، يبيعون القرع والبطيخ والعنب والدجاج ..

ووسط هذا الزحام يمشى العسكر .. دائمًا لهم ذات المظهر المهيب المقلق .. فى هذا العصر يرتدى كل منهم ما يشبه غطاء الرأس المتصل بحرملة تغطى الكتفين ، وهى من السلاسل الحديدية المجدولة ، وفى يد كل منهم رمح ، وعلى صدر سترته شعار من شعارات القرون الوسطى ، يمثل ذئبًا يفتح شدقيه عن آخرهما ..

يمشون فى كل مكان .. يركلون هذه السلّة أو تلك بحجة أن بائعها يسدّ الطريق ، ولا بأس من التقاط تفاحة من هذا البائع أو ذاك على سبيل الرشوة ، ولا بأس من مغازلة تلك البائعة الحسناء ، أو هاته ..

تنظر (عبير) للأفق لترى القلعة .. القلعة الشامخة التى تطلّ على هذا كله .. وفوق برجها يرفرف العلم الذى يحمل ذات شعار الذئب ..

تهيب بجوادها كى يتقدم نحوها ..

لماذا ؟ لا تدرى .. كان هذا نوعًا من النداء الغامض الذى هو أقوى منها .. إن مسار القصة هو ما يحركها ، وليست إرادتها الخاصة ..

★ ★ ★

وتصل إلى القلعة حيث الخندق العملاق ، والجسر الخشبى الهابط ، والذى يرفعونه وقت الحصار ..

لم يعترض الحراس الكثيرون دخولها ، بل إن بعضهم لوّح بذراعه محييًا .. هووووم ! غريب هذا !

ثم رأت واحدًا من الحرس تنم ثيابه ، وتنم سنّه على أنه أرفع مقامًا من الآخرين .. ربما هو ضابط أو قائد للحرس ..

يمدّ يده لمقود جوادها ليوقفه ، ويقول بلهجة تقريرية :

ـ « هلم يا (باتريك) .. إن الذئب ينتظرك منذ الفجر ! »

الذئب ينتظرنى ؟ ألم أقل لكم إن هذا كله غريب ؟

وتترجل (عبير) وتشق طريقها إلى داخل القلعة .. قلعة عصور وسطى معتادة بقذارتها وكلابها الضالة ، والمشاعل على الجدران ، ودوريات الحرس فى كل مكان ..

ثم تبرز فتاة حسناء تضع طرطورًا على رأسها ـ يبدو أن هذه من سمات الأناقة فى هذا العصر ـ فتهرع نحو (باتريك) فى لهفة ، وبكفيها تحتضن خدّيه ، وتهتف ملهوفة :

ـ « (باتريك) أيها الحبيب ! كدت أموت خوفًا ! »

طبعًا لم تستطع (عبير) بعد أن تتخلص من مشاعر الأنثى ، وقد شعرت بارتباك حقيقى من هذا الاستقبال العاطفى المشبوب ، لكن لسانها لم يتركها فى هذا المأزق :

ـ « (بياتريس) أيتها الحسناء .. تذكرى أن الرجال من حولنا ! »

ـ « وهم يعرفون كذلك أنك خطيبى ! »

إذن فـ (عبير) الآن تدعى (باتريك) ، وهذا الأخ (باتريك) هو خطيب هذه الحسناء المتحمسة .. منذ متى تزفّ الصقور إلى الحمائم ؟ »

لقد رأت (عبير) وجهها فى الغدير هذا الصباح ، وتعرف أن لها وجه غول لو أن الغيلان كانت أقبح .. فما سرّ افتتان هذه اليمامة بغول ؟ ومن هى (بياتريس) أصلاً ؟

تملصت (عبير) من خطيبتها المتحمسة ، ومشت مع الرجال إلى ممر طويل .. واضح أنه سجن من سجون العصور الوسطى ، لأن القضبان الحديدية كانت على الجانبين ، وبالداخل مخلوقات تعسة تذكرها بالكلاب التى تنتظر الإعدام فى (الشفخانة) ..

لقد كان كل سجين مربوطًا بالسلاسل من أطرافه الخمسة .. نعم خمسة لأن سوارًا حديديًا كان يحيط بالعنق .. وكانت حالته الصحية غاية فى السوء ، والرائحة تنمّ عن أن الاستحمام عادة لم توجد بعد هنا .. كتلة شعر متسخة مكبلة بالأصفاد ، ترمقها بعيون هى مزيج من التوحش والشقاء ، والألم الذى اختلط بالجنون ..

عند نهاية الممر كانت قاعة هائلة ..

عرفت الذئب من النظرة الأولى ..

لقد كان بحق ذئبًا ، ولولا المبالغة لرفع عقيرته إلى السماء وأطلق عواء طويلاً حزينًا .. وأدركت أن عينيه تلمعان فى الظلام .. لا تدرى كيف ، لكن هاتين العينين تصلحان بالتأكيد ..

كان واقفًا جوار المدفأة وقبضتاه فى خصره ، وهو يرمقها بنظراته النارية التى تنبعث من تحت حاجبيه الكثين ..

وأدركت أنه فى عمر (روبين هود) تقريبًا ، لكن صحته أفضل وعزيمته أقوى .. لابد أنه كان مرعبًا كالموت منذ عشرين عامًا ، لكنه الآن مخيف فقط ..

ـ « ادخل يا (باتريك) ، وقل لى ما أحرزت من نصر ! »

قالها بصوت غليظ آمر ..

هنا بدأت (عبير) تشعر بأن الأمر مريب ..

تقدمت إلى المدفأة ، ونظرت إلى قدميها فى تبجيل ، وقالت الكلمات التى كانت تخشى أن تقولها ..

ـ « تحية يا بارون (روجر) .. لقد تمّ الأمر كما أردت ولم يرتابوا فى شىء ! »

* * *

٦ ـ صراع الواجب والعاطفة ..

[عنوان مبتذل لكنه صالح جدًّا]

بعينين توشكان على الانفجار بالدموع ، وبقلب مثقل ، راحت (عبير) تقدم تقريرها للذئب عن أحداث يومها الصاخب فى غابة (شيروود) ..

كان هذا يسمعها دون أن يطفئ كشافيه القويين ـ عينيه ـ لحظة واحدة ، ومن حين لآخر يقتطع شريحة من اللحم النيئ من فخذ يسيل منها الدم على المنضدة أمامه ، فيدسها بطرف السكين بين أسنانه ويمضغ طبعًا .. هذا مزاج كمزاج الوحوش لا يستطيع الحياة دقيقتين دون لحم ..

إن المهانة تغمرها ، والخزى يغلفها بطيلسانه ..

هذا إذن دورها فى هذه القصة .. لقد كانت من البداية فى معسكر الشرّ لا الخير ، وكان ما فعلته لدى (روبين هود) مجرّد خدعة .. خدعة حقيرة للاندساس

فى صفوف المقاتلين الشرفاء ، الذين لا يملكون سوى حياتهم .. ومن الواضح أن هذا الـ (باتريك) مقرّب جدًا لدى المأمور .. إنه كذلك خطيب ابنته .. كيف عرفت أن (بياتريس) ابنته ؟ لأنه قال :

- « إن ابنتى (بياتريس) كانت تشعر بقلق عارم عليك .. »

ثم إن المأمور تساءل وهو يجوب القاعة كما يفعل (نابليون) عشية موقعة (أوستر ليتز) :

- « الآن ما هى انطباعاتك عن استعدادات هؤلاء الأمنية ؟

قالت (عبير) / (باتريك) وهى تتمنى لو تخرس :

- « ليسوا بهذه اليقظة ، ولولا أننى لم أتلق أوامر صريحة لقمت بذبحهم وهم نيام .. »

بدا البشر على المأمور، واقتطع شريحة لحم أخرى :

- « ما كنت تجد الوقت الكافى لذبح كل هؤلاء يا بنى .. لكنك كنت تقدر على قطع رأس الأفعى .. »

ثم عقد يديه وقال :

- « هذه هى أهم خطوة قمنا بها .. رجل من رجالنا - بل وخطيب ابنتى - قد صار فردًا من عصابة (روبين هود) .. كانت خطتى بارعة من البداية يا (باتريك) .. إن أحدًا لا يعرف وجهك فى (توتنجهام) كلها ، ولست (محروقًا) ككل رجالى البلهاء ، كما أنك لست غبيًا ، وبراعتك فى القتال التى اكتسبتها مع الإيرلنديين جعلتك إغراء لا يقاوم .. إن هؤلاء اللصوص فى (شيروود) يثقون تمامًا بكل من يقف ندًا لهم فى القتال .. شعارهم هو (القوة معناها الشرف) ، وهو شعار أحمق بالتأكيد ينم عن طفولة بالغة ، إن الخنزير البرى خصم قوى مخيف لكن أحدًا لن يتهمه بالشرف قط ..

كانت (عبير) تسمع هذا كله ، وتمتلئ خجلاً ، لكنها لا تجرؤ على الكلام .. الأمر بعد كل شىء لم يتم باختيارها .. (دى - جى ٢) الأحمق اختار لها دور رجل .. بل ورجل خائن ..

قال لها المأمور ، وهو يقطع شريحة لحم جديدة :

- « الآن يا (باتريك) أنصحك ألا تجىء هنا مرة أخرى .. إن السوق يعجّ برجال (روبين هود) ،

وإذا لم يروك تدخل القلعة اليوم فلربما يرونك غدًا .. حتى لو كنت متنكرًا بثياب تاجر ثرى فلا مشكلة هنالك .. كل الرجال اليوم يتنكرون بثياب تجار أثرياء ..

ثم أخرج من جيبه قارورة صغيرة ، وطوّحها فى الهواء صوب (عبير) .. بمعجزة ما نجحت فى التقاطها برغم أنها لم تفلح فى ذلك قط .. إن لـ (باتريك) قدرات غير عادية ..

قال المأمور :

ـ « هذه هدية من آل (بورجيا) فى (فلورنسا) .. أنت تعرف ولعهم بالسمّ إلى حدّ أن زجاجة السمّ توضع على مائدة الطعام جوار الملاحة .. أنت تعرف الباقى .. »(*)

وكانت (عبير) تعرف تاريخ آل (بورجيا) الذى لا يعدو سلسلة طويلة من حوادث التسمّم .. كما كانت تعرف أنها لن تستعمل هذه الزجاجة أبدًا .. لكنها أخذتها ودستها فى جيبها ..

(*) هنا يوجد خلط تاريخى كالذى اعتدناه فى (فانتازيا) .. فلم يتزامن آل (بورجيا) مع عصر (روبين هود) !

قال المأمور برضا :

ـ « إنهم بالطبع يطهون طعامهم فى قدر كبير .. بعدها تعلن أنك متوعك ولن تشاركهم العشاء .. كل هذا سهل هين .. »

ثم تقدّم نحو (عبير) / (باتريك) ووضع يده الثقيلة المشعرة على كتفه ، وقال :

ـ « إن مكافأتين تنتظرانك يا (باتريك) يوم تخلصنى من هؤلاء .. »

لم تسأل (عبير) عن المكافأة الأولى ، فهى بالتأكيد مبلغ ما لى أو أن تصير هى المأمور إذ يترقى هذا .. أما المكافأة الثانية فهى حتمًا الزواج بابنة الرجل .. وكلا المكافأتين لا تناسبانها أبدًا .. إنها فى ذلك زاهدة أشد الزهد .. لكنها بالطبع قالت :

ـ « اعتمد علىّ يا سيدى المأمور .. »

وانحنت فى أدب ، ولملمت عباءتها واتجهت للباب ، شاعرة بالنظرات الحادة للذئب العجوز مسلطة على ظهرها ، حتى لتحرق عباءتها حرقًا .. هذا الرجل قضى



وانحنت فى أدب ، ولملمت عباءتها واتجهت للباب ، شاعرة بالنظرات الحادة للذئب العجوز مسلطة على ظهرها ..

حياته فى الشكوك حتى لم يعد قادرًا على النظرات الودود ..

وخرجت إلى ساحة القلعة ، فأمسك أحد الحراس بلجام حصانها ، على حين وثبت إلى ظهره ، وانطلقت تركض عبر السوق ..

كانت تعرف أن جواسيس (روبين) كثيرون هنا .. بالتأكيد .. هكذا تعلمت من القصص ، وتعرف أن المتسولين الذين تراهم حولها ليسوا كذلك .. لكن لتأمل ألا يلاحظ أحدهم وجهها ..

وبعد قليل .. كانت قد غادرت المدينة، وراحت تركض فى الخلاء بين الأشجار متجهة إلى (شيروود) ..

* * *

فى الطريق كانت غصة شديدة فى حلقها ..

إن المأمور ـ برغم شرّه ـ يثق بها ثقة غالية ، ومن العسير أن تخونه ، لأن الخيانة هى الخيانة ، و (روبين هود) مطمئن إليها ، ومن العسير أن تدس له السم ..

إذن ما هو الصواب ؟ الصواب هو أن تتخلص من قنينة السمّ وتنسى الأمـر برمتـه ، الصواب أن تتخذ جانب (روبين هود) لأنه الخير .. أو من الواضح أنه الخير ..

وحين دخلت الغابة ، ماشية بين الأشجار المتدلية ، قاصدة تلك السنديانة العجوز ، كانت قد اتخذت قرارها ..

* * *

وكان الرجال جالسين يلتهمون طعام الإفطار ، المكـون من الحليب والعسل واللحم .. خليط غريب بعض الشيء ..

جلست جوار (جونز) الصغير الذى ابيض شـارباه من الحليب ، وسألته :

- « هل هناك أبقار هنا ؟ »

- « وما أهمية الأبقار ؟ »

- « الحليب .. أنتم لا تحصلون عليه من السـناجب على ما أظن ؟ »

- « آه كلا .. نحـن نحصل عليـه من الفلاحين .. نبيعهم ما نسرقه مقابل الحليب والعسل .. »

- « آه فهمت .. »

وخطر لها أن (روبين هود) يملك حقًا عددًا هائلاً من المعجبين فى ربوع (انجلترا) .. إنها جاذبية الخارجين على القانون الشهيرة ، خاصة إذا كان خروجًا على سلطة شمولية ظالمة .. فى (مصر) نجد (أدهم الشرقاوى) ، وفى (انجلترا) نجد (روب روى) و (روبين هود) ، وفى (أستراليا) نجد (نيـد كيللـى) ، وفـى (أمريكـا) نجد (وايلد بيل هيكوك) .. دائمًا هناك البطل المتفرد الخارج على قيود السلطة ، ودائمًا هناك الفلاحون الذين يساندونه سرًا ، ويعجبون به ، وينظمون الأغانى فـى مدحـه ، ودائمـًا هنـاك السلطة الغبيـة الفظة الطائشـة التى تبحث عنـه فى كل مكـان ، بينهمـا هو كالشبح لا يمكن الإمساك به .. إلى أن تجىء اللحظة ..

لا بد من اللحظـة النهائية التى يتم فيها القبض على البطل ، وإعدامه غالبًا .. وهى اللمسة الأخيرة المطلوبـة لتحويل قصته إلى ملحمة ينشدها الشـعراء حول النـار ليلاً .. اللمسة التى تعطى القصة طابعًا مأساويًا محببًا ..

سألها الراهب (تاك) قاطعًا حبل أفكارها :

- « هل وجدت ما تريد فى (نوتنجهام) ؟

ارتبكت (عبير) حين بوغتت بالسؤال ، وتحسست رأسها بحثًا عن بطحة وهمية ، ثم قالت :

- « إ .. ليس تمامًا .. ابتعت بعض الخبز وأكلته هناك .. »

وابتلعت ريقها لتتفادى نظرات الرجال النارية ..

قال (روبين هود) بصوته العجوز الواهن :

- « إن مهمتنا اليوم محددة يا رفاق .. إن (ويليام) زميلنا سيشنق فى (نوتنجهام) اليوم عندما تتوسط الشمس السماء ..

فتعالت أصوات الـ (أوه) والـ (آه) و (آخ) ..

وقال الراهب (تاك) :

- « لحظة .. ألم نقل إنه سيُشنق يوم الأحد القادم ؟!»

- « كان هذا تمويهًا من المأمور .. لكنه سيشنقه اليوم .. هذا مؤكد ، وقد تم إعداد منصة الإعدام والحبل .. وكل التفاصيل المبهجة إياها .. »

- « وما هى خطتنا ؟ »

أشار (روبين) إلى (جونز) الصغير ، وقال :

- « نفس الروتين .. سنتجه إلى هناك بثياب المتسولين .. وعلى الراهب (تاك) أن يتولَى الصلاة على المحكوم عليه كما هى العادة .. »

هنا تساءلت (عبير) فى غباء :

- « نفس الروتين ؟ هل تنفذون الخطة ذاتها فى كل مرة ؟ »

- « بحذافيرها .. »

- « وفى كل مرة لا يأخذون حذرهم ؟ »

- « إنهم حمقى ، وهذا لحسن حظنا .. »

وأضاف الراهب (تاك) :

- « ليس هناك سوى رجل واحد خطر فى رجال المأمور .. إنه المأمور نفسه .. فهو شديد الذكاء سريع البديهة .. يقال إن خطيب ابنته القادم من (إيرلندا) أشد خطرًا ودهاءً ، لكننا لم نتعامل معه ولا نعرف شكله .. »

ابتلعت (عبير) ريقها، وتظاهرت بأنها ليست خطيب ابنة المأمور القادم من (إيرلندا) ، لكن تظاهرها لم يكن بالمستوى المطلوب ..

عاد (روبين هود) يشرح خطته ..

- « سنتجمع هناك الآن .. ونبدأ فى التسوّل .. (روجر) .. أقترح أن تتبعنا مرتديًا ثياب متسوّل آخر .. لا بد من أن تدرس أساليبنا فى العمل ..

هزّت رأسها أن نعم ، وإن شعرت بارتباك بالغ ..

هل يتوقع منها المأمور أن تنذره ؟ هبها لم تفعل .. من المفروض أن تنذره .. سيكون غضبه شديدًا ، لكنها تشعر الآن بارتباط قوى برجال (روبين هود) .. إن المرء لا يفكّر مرتين قبل أن ينحاز إلى الخير ..

فى الغالب سيعرف المأمور اختيارها هذا سريعًا جدًّا ..

وليكونن غضبه مرعبًا ..

★ ★ ★

وبعد ساعة ازداد عدد المتسولين فى سوق (نوتنجهام) نحو خمسين متسولاً جديدًا ..

تفرقوا فى كل صوب ، وراحوا يضايقون كل من يبدو ثراؤه للعيان ، ولا بأس من نشل كيس ذهبة إذا كان فى موضع مكشوف ..

وكانت الأخبار التى وصلت إلى (روبين هود) صحيحة .. ها هى ذى الراية السوداء ترتفع فوق القلعة ، وها هم أولاء النجارون يتأكدون من سلامة المنصة المخصصة للشنق ، وارتفاع الطبلية .. إلخ .

ثم توسطت الشمس الأفق ..

★ ★ ★

٧ ـ جولة بارعة ..

بدأت الطبول تدق ، وخرج من القلعة صفّان من الجنود ذوى أغطية الرأس المصنوعة من السلاسل إياها ، وبين الصفين كان شىء مقيد يتعثر .. أقول شىء ، لأنه لم يكن يمت للبشر بصلة .. كائن أشعث مغبّر متورم الوجه من فرط الضرب ، يسيل الدم من أنفه ، وفى عينيه نظرة حيوان جريح .. وبالطبع كان مقيدًا بالحبال ..

وتعالت صيحات الدهماء من فرط الحماس .. شنق ! يا للبهجة !

خطر لـ (عبير) كم أن هؤلاء حمقى .. إن المشنوق واحد منهم .. واحد من المنافحين عنهم ، يشنقه أعداؤهم ومستغلوهم .. لكن الجماهير لا عقل لها كما سيقول (أحمد شوقى) بك يومًا ما فى مسرحية (كليوباترا) ، وكما سيعرف (جوبلز) وزير دعاية (هتلر) يقينا ..

إن الدهماء يتصايحون ويتدافعون ، والأمهات يرفعن أطفالهن فوق الرءوس ليروا هذا المشهد المسلّى المناسب لبراءة الطفولة ..

وعلى المنصة يقف السجين مع جنديين ، ومع رجل يرتدى طرطورًا غريب الشكل لا بد أنه يدلّ على رفعة المكانة ..

فتح ذو الطرطور لفافة ورقية لها مقبضان من خشب فى أعلاها وأسفلها ، وصاح بصوت أخرس الجماهير :

ـ « هييرى هييرى ! بما أن جرائمه وخيانته ثبتت بما لا يدع مجالاً للشك ، وبما أن انضمامه لعصابة (روبين هود) الخارج على القانون أمر له مرتبة اليقين لدينا ، نحن (روجر ملتاون) مأمور (نونتنجهام) ، فإننا ـ بضمير مستريح ـ حكمنا عليه بالإعدام شنقًا حتى الموت .. »

وأغلق الرجل اللفافة وتنهد فى رضا ..

جاء الجلاد الملثم ، وبدأ يعدّ الحبل الغليظ ليحيط به عنق الرجل ، على حين سأله أحد الضباط :

ـ « (ويليام) .. يمكنك طلب الرأفة الآن .. لربما كان قلب العدالة رحيمًا .. »

قال السجين شيئًا ما :

ـ « شاشا شيع .. شنانى شاشاشرت شلّها !! »

ـ « ماذا تقول ؟ »

قال الرجل ذو الطرطور :

ـ « يقول إنه لن يستطيع يا سيدى .. لقد تهشمت أسنانه كلها .. »

ـ « هذا مؤسف .. يمكننا البدء إذن .. »

هنا صاح صوت من وسط الجماهير :

ـ « توقف ! لن يموت هذا الرجل دون رجل دين بجواره ! »

نظر الضابط حوله ، فلم يجد رجل دين .. قال فى سأم :

ـ « هذا مطلب عادل .. لكن أين القس ؟ »

بالطبع لم يكن القس هنا ، لأن إبعاده تمَ منذ ساعة فى هدوء تامَ .. وبالتالى خلت الساحة أمام الراهب (تاك) الذى لوّح بذراعه وسط الحشود ، وصاح :

ـ « أنا مستعد يا سيدى .. »

ـ « تقدم إذن أيها الراهب .. »

وصعد (تاك) إلى منصة الإعدام ، وأدركت (عبير) أنه تخفى بطريقة بسيطة جدًا .. جعل قلنسوته تنزلق لتغطى رأسه تقريبًا ، لكن هذا لم يخفه تمامًا .. وسمعت مواطنًا يقول لصديقه :

ـ « تبًا ! لن يكون هناك شنق ! لقد رأيت هذا المشهد عشر مرات من قبل .. سينقذون السجين ويهشمون رءوس الحراس .. »

وكان الراهب (تاك) واقفًا خلف السجين ، يهمس بكلمات الصلاة فى أذنه ، ثم تراجع إلى الوراء وهبط على درجات المنصة ، وهو يقول فى قنوط :

ـ « يمكنكم البدء يا سادة .. »

وهكذا رفع الضابط يده ليعطى إشارة البدء للجلاّد ..

دقات الطبول ... ثم ....

* * *

وكما توقعت (عبير) انطلق السهم يصفر فوق الرءوس ، ليستقر فى يد الضابط المرفوعة فى السماء ..

صرخ هذا من فرط الألم ، وحاول انتزاع السهم ..

وفى ذات اللحظة تقريبًا غرس السجين ـ الذى مزّق الراهب قيوده ـ مدية حتى مقبضها فى صدر الجلاد العريض ..

ومن عدة أماكن فى الزحام انطلقت السهام لتستقر فى بطون الحرّاس ، أو وجوههم ، باعتبار أنه لا توجد دروع ها هنا ..

وحانت نظرة عابرة من (عبير) إلى (روبين هود) ، فرأته يحاول التصويب بالقوس والسهم بيد مرتعشة راجفة ، وفى لحظة الانطلاق رأت (جونز) الصغير يطلق سهمًا آخر من وراء كتف (روبين هود) ، وبالطبع كان من الواضح أن السهم الذى أصاب الضابط كان سهم (جونز) ، لكن (روبين هود) لوّح بالقوس فى رضا ..

التقت عيناها بعينى (جونز) المتوحشتين ، فالتمعت فى عينيه نظرة من طراز (لنبق ـ ما ـ رأيت ـ سرًّا) ..

وعلى المنصة ساد الهرج ، لأن الجنود راحوا يتراجعون دون نظام ، وبرز أحد رجال (روبين هود) على صهوة جواد ، وبيد من حديد ساعد السجين على

أن يركب أمامه فوق السرج .. ثم لوّح بسيفه فى الهواء صائحًا :

ـ « لقد انتصر من على حق ! الموت للمأمور ! »

ولم يحتج الجمهور إلى تفسيرات أخرى ، إذ راح يهلل بدوره ..

وتعالت صيحات الهتاف لـ (روبين هود) والدعاء على المأمور ، حتى كادت (عبير) تجنّ غيظًا .. لقد تحول موقف العامة خلال ثانية من المطالبة برقبة السجين إلى المطالبة برقبة السجّان ! ماذا تقول عنهم ؟ دهماء ! وقد قرأت موقفًا مماثلاً لتحول آراء الجماهير مائة وثمانين درجة فى مشهد المواجهة الشهير بين (أنطونيوس) و (بروتوس) فى رائعة شكسبير (يوليوس قيصر) .. إنه يلخص كل شىء ..

ها هو ذا الحصان يشق طريقه وسط الجموع ، وقد صار اللحاق به عسيرًا لأن الجماهير صنعت حاجزًا يحول دون الحراس والوصول إليه ، وفى سلاسة ولطف راح رجال (روبين هود) يتسللون الواحد تلو الآخر ..

إن الجياد تنتظر عند الطرف الجنوبى للسوق ..

أما (روبين هود) فذاب وسط الزحام ، لكنها أدركت من الهتاف أن القوم حسبوه هو راكب الحصان ..

حماقة أخرى من الحماقات .. فكيف يحتفظ الرجل بشبابه وفتوته عشرين عامًا كاملاً ؟ إنما يحسب العامة أن أبطالهم لا يشيخون .. ولا يهرمون ولا يموتون ..

وسرعان ما وجدت (عبير) نفسها تلحق بالرجال ..

* * *

وانطلق الموكب ـ موكب الخارجين على القانون ـ فى الطريق إلى (شيروود) لا يلوى على شىء .. إن الوصول هناك يعنى زوال الخطر تمامًا .. لأن رجال المأمور لا يجسرون على دخول الغابة ..

لكن هناك نحو خمسين منهم يركبون خيولاً سريعة ، ويركضون كما تركض الفهود وراء موكب الشجعان ..

نظرت للوراء وأدركت أن الفرار مستحيل حقًا ..

إن المسافة تضيق .. وتضيق ..

ـ « توقفوا ! »

كذا صاح (جونز) الصغير ، وشدّ لجام حصانه المسرع ، فوقف الحصان على ساقيه الخلفيتين صاهلاً بذلك المنظر المألوف لحصان تتم (فرملته) ، وكذا فعل الباقون ..

أصيب رجال المأمور بالدهشة ، وهم يرون المطاردين يقفون بلا حراك بانتظارهم ، وكان تفكيرهم ـ الجنود ـ بطيئًا نوعًا ..

فى الثانية التالية هوت شجرة غليظة أمامهم أثارت هلع الخيول واهتزت الأرض لدويها ..

ثم هوت شجرة أخرى من خلفهم ، وتكرّر المشهد ..

ـ « كمييين ! »

كذا صاح أحدهم وهو يلوّح بسيفه ..

متأخرًا طبعًا كالعادة لأن السهام انطلقت من الأشجار كسرب من جراد نحو الجنود وخيولهم ، وكل ما يمت لهم بصلة ..

كانت مجزرة حقيقية شارك فيها رجال (روبين هود) الذين كانت بينهم ، وراح الجنود يثبون بخيولهم فوق

الشجرة الغليظة التى سدَت عليهم سبيل التراجع .. لكن قليلين فقط هم الذين أفلحوا ، وقد أفلحوا فقط بفضل دعاء الوالدين .. وليس لبراعة خاصة لديهم ..

استمر سيل السهام القادم من الأشجار نحو دقيقة ، لكنه كان كافيًا كى يحيل رجال العمدة إلى بطاقات مثقبة صالحة للحاسب الآلى ، وقال (روبين هود) لرجاله فى رضا :

- « فلنواصل الانسحاب .. »

نظرت له (عبير) منبهرة :

ما زال هذا العجوز بارعًا قادرًا على التخطيط بدقة .. لقد رسم كل شىء وتحسب للمطاردة ، لذا ترك بعض رجاله فوق الأشجار بقسيّهم وشجرتين مقطوعتين مربوطتين بالحبال تنتظران لحظة مرور رجال المأمور ..

حقًا إنه لبارع ..

* * *

وفى (شيروود) كان الاحتفال مبهرًا ..

المزيد من لحم الغزلان المشوى والرقص .. حتى قدرت (عبير) أن حياة هؤلاء القوم هى سلسلة لا تنتهى من القتل بالسهام ثم الاحتفال ثم القتل بالسهام ..

بعد الأكل واصل (روبين هود) نومه الطويل ، على حين التف الرجال حول (ويليام) يسألونه عن سجن المأمور ..

قال لهم فى حماس :

- « شاشىء .. لم أشيئًا شوى الشرْب وشيد من الشرْب .. »

فسّر لهم الراهب (تاك) الأمر :

- « إن أسنانه محطّمة لهذا صارت الأبجدية كلها حرفًا واحدًا هو (الشين) .. لكنه يقول إنه لم ير فى السجن شيئًا .. لقد كان يُضرب طيلة الوقت فلم يجد متسعًا من الفراغ للملاحظة .. »

جلست (عبير) جوار الراهب (تاك) .. وسألته همسًا :

- « هل (روبين هود) هو صاحب هذه الترتيبات ؟ »

قال بهمس مماثل :

ـ « بالطبع لا .. أنا و (جونز) الصغير نقود المجموعة فعليًا فى هذه الآونة الكئيبة .. »

ثم هتف وكأنما يصحح خطأ جسيمًا :

ـ « لا أعنى بهذا أن (روبين هود) العظيم قد انتهى .. لكن للسن أحكامها ، ولنقل إن مقدرته على التخطيط لم تعد كما كانت ، لكننا نستهدى بالخطوط العريضة التى رسمها لنا .. »

قالت وقد تذكرت مشاجرة أمس :

ـ « كان قويًا .. لم يكن خصمًا سهلاً بحال .. »

ـ « بالطبع .. إن (روبين هود) لم ينته .. لنقل إن بريقه تدنى قليلاً .. لهذا نحرص على ألا يراه الناس بحالته هذه .. لا بد أن يروه براقًا لامعًا متألقًا فى كل لحظة .. »

قالت :

ـ « لهذا حسبه الناس (جونز) الصغير .. »

ـ « تلك هى الصورة التى نحاول تدعيمها .. إن (جونز) نموذج للقوة العاتية الرجوليه ، وهو الشكل الذى نتمنى أن يرى الفلاحون (روبين هود) عليه .. »

ثم نهض الراهب (تاك) وصاح فى قطاع الطريق :

ـ « استراحة ! فليفعل كل ما يروق له ، ولكن أريد ثلاثة ناضورجية يقظين .. »

وهكذا تفرق الرجال وقد انتهى برنامج اليوم ، وحتى (ويليام) الهارب من السجن ذهب ليستحمَّ ، ويرتدى الأخضر ..

* * *

عند الغروب صاح الناضورجية أن فارسًا يدنو من الغابة ، ودوّى صوت النفير إياه ، وهرع الجميع إلى غصون الأشجار يراقبون الطريق القادم من الغابة ..

كان القادم فارسًا مدرعًا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وكانت عيناه تتواريان وراء خوذة عجيبة من خوذات القرون الوسطى الشبيهة برأس ديناصور ، وكان يحمل رمحًا بالغ الطول يصلح ليطعن به القمر ذاته ، وقد تدلت منه بعض الأعلام المثلثة ..

هنا قال الراهب (تاك) فى اطمئنان :

ـ « لا تقلقوا .. إنه زميل آخر .. »

ورفع يده محييًا ، وصاح وقد صار مرئيًا للفارس :

- « مرحبًا يا (إيفانهو) .. تفضل ! »

اكتفى (إيفانهو) بأن لوّح برمحه محييًا ، وواصل رحلته بحثًا عن المتاعب .. عن أشرار يجعل حياتهم جحيمًا أو أبرار ينقذهم ..

قالت (عبير) وهى تسترخى موجهة كلامها للراهب :

- « لديكم كثير من وقت الفراغ فى العصور الوسطى هذه .. »

لم يفهم طبعًا .. فكيف يعرف من يعيش فى العصور الوسطى أنه فى العصور الوسطى ؟ وكيف يعرف من ولد عام ١٧٠٠ قبل الميلاد أنه قبل الميلاد ؟ لكنه قال وقد فهم جزءًا من تلميحها :

- « إن الفروسيةَ هى القيمةُ العظمى هنا .. إن الفارس يتلقى تعليمًا جيدًا خلقيًا وبدنيًا ، ثم يتم تعيينه فارسًا .. فى الغالب تكون له حبيبة حسناء يقسم على أن يحقق لها الأمجاد ، ثم ينطلق بلا هدف بحثًا عن المتاعب .. عن لصوص يهشم رءوسهم أو تنين يصارعه .. فيما بعد سيكتب الأسبانى (سرفانتس) قصة ممتازة عن فارس من هؤلاء .. أو واحد حسب نفسه فارسًا من هؤلاء .. »

قالت فى لهجة من يعرف كل شىء :

- « (دون كيشوت) طبعًا .. لقد صار رمزًا عالميًا لتحدى المستحيل ، وشعراء الحداثة مولعون به بشكل خاص .. »

وبدأ الرجال ينسحبون من جديد إلى مواقعهم فى الغابة ، وأدركت (عبير) أن جدول أعمال اليوم انتهى ..

* * *

كان الليل قد جاء ، واشتعلت النار التى التفّ حولها الرجال يشوون طعامهم .. إن الليل ساعة خطرة لأن المأمور يحب القيام بغاراته فى هذا الوقت بالذات .. كما قلنا هو يملك طبائع الذئاب ..

لهذا كان عدد الناضورجية يزداد أكثر من اللازم حول أطراف الغابة .. كما أن الكلاب كانت لها أهمية خاصة فى هذا المضمار حين تكون للرائحة أهمية الحياة ذاتها ..

كلاب ؟ أين الكلاب ؟

من وراء الأشجار جاء رجلان ضخما الجثة أصلعا الرأس ، يحملان بين أيديهما شيئًا أسود ضخمًا بدوره ..

ألقياه على الأرض فأدركت (عبير) أنه كلب ميت ..

ساد الصمت .. لا شىء سوى الفرقعة الخافتة للأغصان المحترقة ، وضوء اللهب الراقص يلقى بعلامات استفهام على الوجوه ..

دنا (روبين هود) من الجثة تأملها فى اهتمام .. ثم رفع وجهه ..

سأل بصوت آمر برغم شيخوخته :

- « من فعل هذا ؟ »

قال أحد الرجال وهو قصير القامة ، حلق شعره بالموسى على جانبى الرأس فبدا مضحكًا :

- « أنا فعلت يا (روبين) .. كان لا بد أن أعرف .. »

- « أحمق ! تضيع علينا كلبًا ثمينًا لمجرّد التجربة .. »

قال (جونز) الصغير وهو يرتجف انفعالاً :

- « ربما كان الأسلوب أحمق .. لكن النتيجة واضحة .. إن القارورة التى وجدناها كانت تحوى سمًا زعافًا ! »



دنا (روبين هود) من الجثة تأملها فى اهتمام .. ثم رفع وجهه !

قارورة ! أية قارورة ؟ »

وتحسست (عبير) جيبها خلسة ، فأدركت أن القارورة التى أعطاها إياها المأمور صباح اليوم لم تعد هناك ..

يا لها من بلهاء ! لقد سقطت منها ووجدها أحدهم .. ولأنهم حذرون فقد قرروا أن يختبروا المادة الموجودة بها ، وأطعموا الكلب قطعة شواء سكبوا عليها قطرات منها .. بالطبع لم يجد الكلب ما يريب من ناحية الرائحة والا الطعم .. إنها سموم آل (بورجيا) ، وهم لم يكسبوا شهرتهم لأنهم هواة أو يحبون المزاح ..

تساءل (روبين هود) :

- « أين تقولون إنكم وجدتم هذه القارورة ؟ »

- « جوار السنديانة العجوز .. »

راح يحك لحيته التى وخطها الشيب ، وقال :

- « قارورة سمٍ فى غابة (شيروود) .. هذا لا يمكن أن يحدث بالصدفة .. هناك من جاء بها إلى هنا ، وهو بالطبع واحد منا .. فما الذى يبتغيه من جلبها ؟ »

صاح (جونز) الصغير وعيناه تشعان نارًا :

- « بالطبع يبغى أن يسممنا ! لا توجد دبابير هنا يحاول الخلاص منها .. »

- « ومعنى هذا أن .. »

- « معناه أن هناك خائنًا بيننا ! »

وازدادت النيران توهجًا ..

ومعها ازدادت العيون والقلوب اشتعالاً ..

* * *

٨ ـ أنت لم تعُدْ منا ..

خائن بيننا ؟ خائن بيننا ؟

صاح (روبين هود) :

ـ « ولكن من ؟ من من إخوان الغابة يقبل أن يسمم أخوانه ؟ »

تحسس (جونز) الصغير مقبض سيفه ، واشتعلت عيناه نارًا ، ونظر إلى (عبير) وقال :

ـ « إن الشك بالضرورة يتجه إلى أحدث المنضمين إلى العصابة ! »

وفى ثانيتين كان أكثر الرجال قد جردوا خناجرهم وسيوفهم ، أو صبوا سهامهم ورماحهم نحو الأخ (روجر) القبيح الذى هو (عبير) ..

رفع (روبين هود) يده معترضًا وقال :

ـ « هذا ليس دليلاً كافيًا ، ولا تقبل به أية محكمة حتى محكمة الذئب ذاته .. »

فى غلّ صاح (جونز) ملوحًا بذؤابة سيفه :

ـ « الحق أننا تسرعنا فى ضمّ هذا الرجل إلينا .. لم نعرفه بالقدر الكافى ، ولم نتشاور بشأنه .. »

ـ « لكنه عرف خطتنا اليوم لإنقاذ (ويليام) ، ومن الواضح أن المأمور لم يُحَط بها علمًا .. »

ـ « لأنه لم يجد الوقت الكافى للوشاية ، أو لأن قتلنا كان هو الهدف الأول الذى أمروه ألا يشتت تفكيره بسواه .. »

قال الراهب (تاك) ملوحًا بعصاه فى الهواء :

ـ « الحق أنه أكثر من الأسئلة والاستفسار عن كل شىء .. يمكننا أن نحطم رأسه الآن لكن يجب أن نتأكد أولاً .. »

ـ « بل نقتله ثم نشأ له أولاً اااان ! »

كان قائل هذا هو (ويليام) .. السجين الهارب الذى برز من مكان ما ، وقد انحنى ظهره حتى كاد يمشى على أربع ، واندفع كالقذيفة ناطحًا برأسه بطن (روجر) (عبير) ..

واضح أن حساسيته مفرطة ، ومقته للمأمور جهنمى ، خاصة بعد مالاقاه فى سجن (نوتنجهام) من حفاوة بالغة .. هو لم يتحمل ذكر كلمة (المأمور) أمامه ..

سقطت (عبير) على الأرض و (روجر) فوقها ، وهو يحاول أن ينشب أظفاره وأسنانه فى حنجرة (عبير) ..

كان - برغم شراسته - ضعيفًا واهنًا ، فلم تجد صعوبة فى أن تطبق كفيها على عنقه ، وتقلبه على الأرض تحت ثقلها ، ثم تضرب الأرض برأسه مرارًا حتى تهدئ حماسه المبالغ فيه ..

فى النهاية نهضت لاهثة ، وقالت وهى تنظر فى عينى (روبين) :

- « هو ذا رجلك يا (روبين) .. حىّ يرزق لكنه مفكك الأوصال .. والآن الحكم حكمك .. لو كنتم تشكون فىّ فلتنتهوا من أمرى حالاً دون مزيد من التخرصات ، أما إن كنتم تعتبروننى منكم فلتعودوا لطعامكم .. »

تبادل الرجال النظرات ومن جديد ساد الصمت ..

أخيرًا قال (روبين هود) بصوت هادئ :

- « هل تقسم لنا إنك برىء ؟ »

كان هذا مأزقًا حقيقيًا .. فـ (عبير) لم تعتد أن تقسم كذبًا لتنجو .. إن معايير كهذه هى ما يحفظ لنا احترامنا لأنفسنا حتى لو كنا قليلى الثقة بها .. لكنها وجدت الحلّ على كل حال ..

رفعت يدها اليمنى فى الهواء ، وقالت :

- « أقسم بالله العظيم إن (روجر ويليام) - أو (روجر القبيح) - برىء ، ولم يجلب هذا السمّ إلى الغابة .. »

- « أحسنت .. »

وكان هذا التلاعب اللفظى هو مخرجها .. الحقيقة هى أن (باتريك) هو من جلب السمّ من المأمور .. أما (روجر ويليام) فلا وجود له ..

ومن الغريب أن هذه الصيغة فى القسم لم تثر ريبة أحدهم ..

نظر (روبين هود) إلى رجاله وصاح :

- « هل من أحد يشك فى هذا القسم ؟ »

قال (جونز) معيدًا السيف إلى غمده :

ـ « أنا أشك كثيرًا .. ولو كنت أنا جاسوسًا للمأمور لما ترددت لحظة فى أن أقسم قسمًا باطلاً .. إن هؤلاء الأنذال لا يعرفون للشرف معنى .. »

أوقفه (روبين) بيده فى حزم ، وقال :

ـ « هذا بعينه هو السبب الذى يجعلنى أهب (روجر) القبيح حياته ، لكن عضويته فى جماعتنا قد انتهت .. يؤسفنى هذا كثيرًا خاصة لو كان بريئًا ، لكن الحكمة تقتضى أن يرحل .. »

ثم أشار إلى اتجاه الرحيل ، وقال لـ (عبير) :

ـ « انصرف ولا تعد يا (روجر) القبيح .. نحن لم نلوث أيدينا بدمك ، لكننا لا نقبل زمالة سلاحك .. »

ودون مزيد من كلمات أدارت (عبير) ظهرها للمجموعة ..

واتجهت إلى حيث حدود غابة (شيروود) ..

* * *

٩ ـ سياحة فى عالم المأمور ..

بالطبع كانت ليلة سوداء كما لنا أن نتوقع ..

* * *

لم يكن الأخ (روجر القبيح) قد تخلص من مشاعر الأنثى ، وبالنسبة للأنثى كانت الغابة مظلمة جدًا ، مخيفة جدًا ، ملأى بأشياء تزوم وتشع عيونها فى الظلام ..

لن تخشى الفئران .. إن البوم يلتهمها دومًا ، لكن ماذا عن البوم ذاته ؟

هكذا ظلت تمشى فى أرض لا تراها ، قاصدة أرضًا لا تعرفها ، هاربة من أرض لم تعد تبصرها ..

ولا تدرى متى ولا كيف أعلن الفجر عن قدومه .. فجر كسول متباطئ يفتقر إلى الحماس ، وهو ـ بالتأكيد ـ غير الفجر الذى كان يجىء يوم الامتحان .. ذلك الفجر العجول المتلهف ؛ الذى يتوق إلى أن يمزق الليل ، ويلوث السماء بدمائه الحمراء ..

كانت هناك عربة يجرها حصانان عجوزان ، وكل الأحصنة هنا من تلك التى يحيط بسيقانها شعر كث يجعلها كأنها ترتدى بنطالاً من نوع (الشارلستون) .. لست واثقًا بصراحة من نوعها لكن يبدو أن اسمها (الكاليسيد) أو شىء من هذا القبيل ..

فوق العربة كان فلاح عجوز بدوره ، ينشد (بالادات) متحشرجة عن بطولات (روبين هود) .. ويجلس فوق بضاعته من اللفت ..

فلما رأى (روجز القبيح) توجس خيفة ، وتوتر قليلاً ..

صاحت (عبير) (روجر) .

ـ « لا تخف أيها الرجل الطيب .. أنا ذاهب إلى (نوتنجهام) ، فهل لديك مكان لى ؟ »

قال العجوز بلسان ملتو :

ـ « أنا لا أخاف إلا الله يا فتى .. ليس لفقير عجوز مثلى أن يخاف قطاع الطرق أو العفاريت .. يمكنك أن تركب مع اللفت إن لم يكن هذا يضايقك .. »

ـ « البتة .. »



فلما رأى (روجز القبيح) توجس خيفة ، وتوتر قليلاً ..

ووثبت إلى العربة فى أثناء سيرها ، وجلست وسط الثمار المستديرة تدير فى رأسها ما ينبغى عمله .. بالطبع ستعود إلى المأمور .. هذا حتمى ..

فهى لا تعرف فى انجلترا هذا العصر سوى مكانين : قلعة المأمور ، وغابة (شيروود) ..

ولكن هل يسامحها المأمور على الفشل ؟

لن تعرف إلا إذا جرّبت ..

★ ★ ★

وكان النهار قد بسط ملكوته على (نوتنجهام) حين دخلت عربة اللفت المدينة ، وكانت الضجة قد بدأت والزحام قد كثر ..

اتجه (روجر) القبيح إلى قلعة الذئب ، وكما هى العادة فتح له الحراس الأبواب باحترام ، وقد تحوّل اسمه إلى (باتريك) .. صهر المأمور القادم ..

استقبلها المأمور فى القاعة إياها ، وقد دهشت لأنه يصحو فى هذا الوقت المبكر على غير عادة أمثاله ، لكنها تذكرت أنه ذئب .. له طباع الذئب وتحفزه ويقظته .. فى الغالب هو لاينام إلا حين يصحو كل حراسه ..

كانت دهشة المأمور واضحة تمامًا :

ـ « ألم أقل لك يا (باتريك) إن حضورك غير مرغوب فيه حاليًا ؟

إن جواسيس (روبين هود) من الكثرة بحيث يفوق تعداد المدينة ذاتها .. »

قال (باتريك) فى شىء من الخزى :

ـ « لا أسرار الآن يا سيدى .. لقد كشفوا أمرى ! »

التمعت عينا المأمور بالنار للحظة ، ثم انطفأ وهجهما .. وقال وهو يقتطع شريحة من اللحم النيئ كالعادة :

ـ « هوووم ! وتركوك حيًّا ؟ »

ـ « لقد خسرت ثقتهم لكنى لم أكسب اتهامهم الكامل لى .. إنهم لا يريدوننى هناك معهم .. »

ـ « والقنينة ؟ »

ـ « وجدوها وعرفوا محتواها .. »

وقف المأمور يتأمل مشهد المدينة كما يراه من نافذة عملاقة هناك ، تغطيها القضبان الحديدية ، وقال بعد هنيهة :

ـ « الحق أنك تحيرنى يا (باتريك) .. انضممت لهم أمس بسهولة لم تكن فى أكثر أحلامى جموحًا ، ثم انكشف أمرك فى اليوم التالى .. »

لم يجد (باتريك) ما يقول ؛ فهزّ رأسه ووقف ينتظر ما تسفر عنه الأمور ..

أخيرًا قال المأمور وهو يضع قبضته فى خصره :

ـ « انصرف الآن .. ولسوف أتدبر الأمر وأرى ما ينبغى عمله .. »

وغادر (باتريك) القاعة حائرًا ..

كيف يمضى يومه الطويل هنا ؟ إن قلعة الذئب مملة بالتأكيد إذا قورنت بغابة (شيرووود) ..

★ ★ ★

لكن القلعة لم تكن مملة على الإطلاق ..

أولاً نزل (باتريك) إلى القبو ، وقد شدّه صوت الصراخ الشنيع هناك ، وكان المكان مظلمًا عفن الرائحة ، وعلى الجانبين تجد المساجين فى زنازين مظلمة مكبلين بالسلاسل ، وثمة جلاد ضخم يضع على رأسه لثامًا أسود ، ويقوم بتسخين قطع من الحديد على الفحم ..

ثمة جو عام شبيه بورش الحدادة بنيرانها وحرّها والسواد الذى يغلف كل شىء ..

يقوم الجلاد بإعداد الكماشات الحادّة ذات الأسنان ليعتصر بها أعناق المذنبين ، كما يتولى ـ بنفس مرحة ـ عملية الجَلْد ..

كلا .. لا انتزاع أظفار من الأصابع لأن طرق التعذيب الشرقية هذه لم تكن قد بلغت انجلترا .. هذه هى مزية وسائل الاتصال الحديثة وتكامل الثقافات ..

سألت (عبير) الجلاد المنهمك فى خنق أحد السجناء :

ـ « ماذا فعل هذا ؟ كم امرأة وطفلاً قتل ؟ »

قال لها والعرق يسيل على جبينه :

ـ « لم يفعل شيئًا من هذا .. إنه ـ الكاذب ابن الكاذب ـ يزعم أنه عاجز عن دفع الضرائب .. »

ـ « آه ! وهل الضرائب كثيرة ؟ »

لهث من فرط المعاناة ، وقال :

ـ « ضرائب على الحبوب .. على الأطفال .. على الزوجة .. على الهواء .. على النيران التى يوقدها فى كوخه .. ضرائب مقابل تحصيل الضرائب .. إن تحصيل الضرائب خدمة حكومية لا بد من دفع ثمنها .. »

قالت (عبير) فى ملل :

ـ « إنهم جميعًا نفس الشىء .. يعتبر الواحد منهم نفسه أحمق إذا دفع الضريبة دون تعذيب .. »

قال الجلاد وهو يهشم رأس السجين بهراوة :

ـ « ليست الضريبة هى ما يهم .. المبدأ هو المبدأ .. لا بد من العبرة والموعظة للآخرين .. »

شكرته (عبير) وهنأته على جهوده ، وواصلت تفقد السجون ..

كان جسدها قد اقشعرّ بما يكفى لما تراه ، لكنها لم تنس لحظة ما يجب أن يقوله أو يفعله (باتريك) خطيب ابنة المأمور .. فبالنسبة لشخص كهذا يعتبر صراخ المعذبين موسيقا يعجز (بيتهوفن) عن كتابتها ، ولذة قدسية قلما شعر بها بشر ..

* * *

صعدت إلى البرج مرتقية عددًا لا بأس به من السلالم المنحوتة فى الحجر .. وكان الحراس يلقونها فيحيونها باحترام بالغ ..

عبرت (الطابية) لتجد بابًا موصدًا بإحكام من الخارج ، وأمامه حارسان متوتران لا تكف عيناهما عن الرقص فى المحاجر ..

رآها الحارسان فوقفا فى احترام وإجلال ينتظران ما ستأمر به ، وكان ما طلبته منطقيًا جدًا : افتحا لى هذا الباب ..

تبادل الرجلان النظرات .. إن هذا المطلب له خطورة خاصة ، لكنه جاء ممن لا ترد له المطالب ..

وبيد مترددة عالج أحدهما المزلاج ، ثم أولج مفتاحًا فى القفل ، وهكذا صارت الغرفة مفتوحة ..

فى ثقة ـ كأنما تعرف ما بالداخل ـ دلفت (عبير) .. وكان الظلام تامًا ، وزاد الأمور سوءًا أن الشمس التى غمرت الطابية أصرت على أن تلاحقها داخل الغرفة بمئات الشموس الملونة ..

وقبل أن تفهم ما يحدث حتى .. آى ! تلقت ضربة عنيفة على رأسها بإناء معدنى .. ثم .. آى ! تلقت ركلة شرسة فى بطنها ..

وآى ! أسنان حديدية تطبق على ذراعها مع عدد لا بأس به من الخمشات .

وقبل أن تتساءل عن سبب احتفاظ المأمور بأسد جبلى هنا ، بدأت عيناها تعتادان الظلام ، واستطاعت أن تدرك أن من يهاجمها امرأة .. امرأة عجوز شاب شعرها وتجعدت أساريرها ، لكن على وجهها مسحة لا تخفى من جمال قديم ..

- « خذ هذه أيها الوغد ! »

تفادت (عبير) المزيد من الضربات بساعديها ، شاعرة بذلك الارتباك الشهير الذى يشعر به الرجل حين تهاجمه امرأة شرسة ، وهو عاجز عن معاملتها بالمثل .. لكنها عرفت على الفور اسم هذه .. إنها (ماريان) بالطبع .. (ماريان) التى يحتفظ بها المأمور هنا طيلة هذه السنين .. (ماريان) أحد أسباب اشتعال هذه الحرب وأهمها ..

* * *

١٠ ـ لماذا لم تخبرنى ؟

- « اهدئى بالله عليك أيتها الفتاة الشرسة ! »

وأخيرًا تمكنت من الإمساك بساعديها واقتيادها إلى منضدة خشبية هناك ، وأجلستها قسرًا ، وبصعوبة قالت لها :

- « أنا لم أؤذك ولست راغبًا فى إيذائك .. »

صاحت (ماريان) ببعض عبارات السباب الساكسونى الأصيل الذى لا توجد فى أى قاموس ، ولا يمكن فهم أنه سباب إلا من تعبيرات وجهها ، ثم قالت :

- « ألست أنت السفاح خطيب (بياتريس) ؟ »

- « بلى .. لكن هذا لا يعنى شيئًا .. »

- « إن (بياتريس) يمامة بريئة .. يمامة أبوها ذئب وزوجها المقبل خنزير .. إنها لفتاة تعسة ! »

قالت (عبير) بنفس اللهجة المترفقة :

- « فهمت .. لا بد أنها تأتى إليك كثيرًا لترعاك وتثرثر معك .. لكن لا بد أنها قالت لك إنها تحبنى .. فلماذا تحب اليمامة خنزيرًا ؟ »

- « لأنها حمقاء ! »

كذلك صرخت فى جنون ، وأردفت :

- « لأنها بلهاء ! كل الفتيات فى سنها يعشقن الفرسان ، خاصة إذا كانوا شديدى المراس .. أنت تلعب لعبة غير عادلة .. »

قالت (عبير) وهى تنهض :

- « آنستى .. أنا لن أحاول تبديل وجهة نظرك فى شخصى حتى لو كنت أرى فى هذا ظلمًا فادحًا .. ولكن لى سؤالاً واحدًا .. هل أنت أخت (روبين هود) أم حبيبته ؟ »

فى اشمئزاز قالت (ماريان) دون أن تنظر لها :

- « أنا أحبه .. لكن الأساطيرِ المنسوجة حول (روبين هود) تتحدَّث عنى أحيانًا باعتبارى حبيبته التى خطفها الذئب .. »

- « وما زلت متحمسة توجهين اللكمات لكل من يدخل حجرتك بعد كل هذه السنين ؟ »

- « لقد أضاع الذئب الوغد عمرى فى هذه الزنزانة المظلمة ، وقد دخلتها فى سن (بياتريس) ، وهأنذا الآن أبدو كأمها أو جدتها .. إن حقدى عليه يفوق أحقاد البشر مجتمعين ! »

قالت (عبير) وهى تتجه إلى الباب :

- « بالمناسبة .. (روبين) أخوك بخير .. لقد كنت معه أمس .. وهو ما زال يحلم باقتحام القلعة وإنقاذك ! »

وخرجت من الباب قبل أن تتلقى المزيد من الأسئلة ..

* * *

جاء يوم مباريات الرماية ..

كان هذا احتفالاً سنويًا يقيمه المأمور فى (نوتنجهام) ، ويدعو إليه الشباب من كل صوب كى يجربوا حظهم فى الرماية ، والجائزة هى جعبة سهام مُذهَبة جميلة الشكل ..

كان يحب مشاهدة هذه المباريات ، وقد اعتاد فى الماضى أن يشارك فيها لكن يديه لم تعودا ثابتتين كالعهد بهما ، وكان (روبين هود) يهوى المجىء متخفيًا لإثارة المتاعب ، لكنه بدوره لم يعد كما كان ، ومنذ خمسة أعوام لم تقع أحداث مزعجة فى هذا اليوم ..

جالسًا فى مقعده العالى الشبيه بالعرش ، و(بياتريس) عن يمينه ، راح يرقب الجماهير الصاخبة نافشًا صدره كالديكة ، كان يرتدى قميصًا مدرعًا تحسبًا لسهم طائش ، وأسهم هذا فى جعله يبدو أضخم وأقوى ..

وعلى بعد خطوات وقف (باتريك) - أو (عبير) - يرمق المشهد الخيالى فى سرور .. مباراة رماية من القرون الوسطى .. هذا مشهد لا يراه المرء مرتين فى حياته ..

والهدف الذى تتم التصفية عليه هو قرص من أقراص التصويب ذات الدوائر المتداخلة ، لكن كان على المتبارين أن يبتعدوا عنه فى كل مرة نحو خمسة أمتار ، ويعيدوا التصويب .. والتصفية النهائية طبعًا ستتم بعد تعليق القرص من حبل متأرجح ..

كان هناك الآن ثلاثة رماة .. بعد ما فشل الباقون ، وكان أحدهم يرتدى قلنسوة تغطى أكثر وجهه وكل رأسه ..

ودققت (عبير) فى ملامحه جيدًا حين كانت تتبدى صدفة .. لم يكن هناك شك فى شخصية هذا .. (جونز) الصغير .. ودارت بعينيها وسط الجماهير حتى استطاعت أن ترى الراهب (تاك) متنكرًا .. وطبعًا (روبين هود) .. ثم نحو عشرة من إخوان الغابة ..

مناورة أخرى يقوم بها رجال (شيروود) ..

هل تخبر المأمور ؟ هل تشى بهم ؟ بالطبع لا .. ستظل صامتة .. لكنهم الآن عرفوا بالتأكيد من هى وفى أى معسكر تقف ..

إن (روجر) القبيح ليس سوى (باتريك) الصهر المستقبلى للمأمور ..

لقد كانوا على حق فى شكوكهم ..

* * *

جاء رجل غريب المظهر ملتح ، يضع على رأسه (بيريه) تخرج منه ريشة ، ويحمل أداة لرمى السهام تشبه البندقية ، وطلب - بلهجة أجنبية صريحة - أن يشارك فى البطولة ..

ثم أخرج من جيبه تفاحة وعرض أن يصيبها على رأس أى واحد يختاره المأمور ..

قال المأمور فى غيظ وهو يطرد الرجل بسبابته :

- « لا مجال للسويسريين فى هذه البطولة يا (ويليام تل) .. إن مكانك فى بلادك مع زميلى

الطاغية (جسلر) .. إنـه رجل عبقرى فرض على النـاس أن يركعوا أمام قبعتـه المعلقـة على عمود فـى الميدان .. جرّب براعتـك فـى الرمايـة هنـاك .. حين يختار ابنك ليكون حامل التفاحة ! »

بدا الأسف على (ويليام تل) ، وقـال شـيئًا مـا بالألمانية ثم ابتعد ..

وعادت المباريات إلى حماسها السابق ..

★ ★ ★

أخيرًا أصاب أحد المتنافسين قلب الهدف المتأرجح بسهمه ، ورفع قوسه فى الهواء يهلل فرحًا ..

لكن (جونز) الصغير رفع قوسـه بدوره ، وأحكم التصويب ، وسرعان ما طار سهمه ليستقر فـوق ذات السهم السابق ، فيشقه إلى نصفين متساويين !

كانت هذه هى الشرارة التى ألهبت حماس الجمـاهير ، وجعلتهم يتصايحون .. إنها لبراعـة لا تصدق ، وقـد صـار الفائز بالبطولة معروفًا دون حاجة للمزيد ..

ويتقدّم (جونـز) الصغير المتنكـر إلـى المنصـة ، ليصافح المأمور من موضع منخفض طبعًا .. حبست

(عبير) أنفاسها متوقعة المدية التى ستمزق عنق المأمور ، لكن هذا لـم يحدث .. كـان الهدف من كل هذا دعائيًّا لا أكثر .. نوعًا من الحرب النفسية التى تحقق أهدافًا أقوى من القتل ..

لقد أخذ (جونـز) جعبـة السـهام ، ولوّح بهـا فى الهواء ليراها الناس ، ثم هتف بصوت كالرعد :

– « إن السيد المأمور يشمل بعنايته رجال (روبيـن هود) وزعيمهم ! »

وفى اللحظة التالية وثب من فـوق المنصـة إلى زحـام الجماهير ، ومن مكان مـا جـاء حصـان مسرّج سرعان ما اعتلى ظهره ، وشق طريقه ملوحًا بالجعبة .. الغنيمة الثمينة التى أعطاها إياه المأمور بكامل إرادته ..

صاح المأمور بالغضب المعتاد :

– « اقبضوا عليه ! لا تدعوه يهرب ! »

لكن الكلام هين ، وسرعان ما اندمـل الصدع الـذى أحدثه انطلاق الحصان من جديد ، وراحت الجمـاهير تهلل :

– « دعوه ! لقد استحق الجائزة ! كفاكم هذا ! »



لقد أخذ (جونز) جعبة السهام ، ولوّح بها فى الهواء ليراها الناس ..

حتى ابتعد (جونز) عن عيون مطارديه ، وفى صمت وسرية توارى رجال (روبين هود) المندسون فى الزحام ..

لقد قاموا بمهمتهم ، وسفهوا المأمور علانية ..

كان هذا الأخير قد تحوّل إلى ثمرة طماطم ، لو أن الطماطم قادرة على كل هذا الصراخ .. راح يرغى ويزبد ويتهم حراسه بالخيانة أو البلاهة ..

ثم إنه صاح فى (باتريك) / (عبير) :

ـ « وأنت ! تعال معى إلى القلعة الآن ! »

* * *

فى القاعة المعتادة ، ومع مزيد من شرائح اللحم النيئ .. راح المأمور يجوب المكان ، ولسانه لا يكف عن إطلاق السباب ، والتهديد .. الحق أنه كان يفضل أن يقتله (جونز) الصغير على أن يؤذى مهابته بهذا الشكل المخزى ..

أخيرًا قال لـ (باتريك) / (عبير) :

ـ « أنت تعرفهم جميعًا ، وكان بوسعك أن تراهم وأن تتعرف هذا الرامى .. وكان من السهل أن تنذرنا ! »

قالت (عبير) فى جزع :

ـ « كان متنكرًا يا سيِّدى .. لم أتعرفه إلا .. »

ـ « هراء .. أنا لا أصدق حرفًا .. »

وأشار بسبابته الغليظة إلى (عبير) بمزيج من الاتهام والتهديد ..

ـ « الحق أن ولاءك لى صار فى موضع حرج .. عدت من عند هؤلاء اللصوص خائبًا تزعم أنهم كشفوا أمرك .. زرت (ماريان) أخت (روبين) فى سجنها لغرض مجهول .. أخفيت عنى أن هؤلاء الرجال الذين اشتركوا فى المسابقة أعضاء فى عصابة (روبين) .. أعتقد يا عزيزى (باتريك) أن قلبك الرقيق قد بدأ يميل تجاه الخير .. »

صاحت (عبير) وهى ترفع كفيها نافية كل هذا :

ـ « وكيف ؟ ألسنا نحن الخير يا سيدى ؟ »

ـ « بل نحن الشرّ الخالص يا عزيزى .. دعك من كل هذا النفاق .. أنت تعرف أننا مجموعة من الذئاب تحاول التهام أكبر قدر من اللحم .. لا يجب أن يكون الحق

بجانبنا لمجرّد أننا نحن .. نحن أوغاد ولا مشكلة هناك ، لكن عليك أن تبرهن لى على أنك ما زلت وغدًا .. »

صاحت فى حماس :

ـ « أنا وغد يا سيدى .. ثق بهذا .. »

ـ « يمكنك أن تبرهن لى .. »

وبدقة لا تصدَق ، أخرج من نطاقه خنجرًا قذفه فى الهواء ليستقر على بعد خمسة سنتيمترات من رأس (عبير) ، وقال :

ـ « البرهان الذى أريده هو أن تأخذ هذا الخنجر الآن ، وتذبح (ماريان) أخت (روبين هود) ! »

* * *

أقتل أخت (روبين) ؟

مستحيل يا سيدى .. أنا لم أقتل دجاجة من قبل ، ثم إن (روبين) لن يرحمنى .. لا داعى لكل هذه المبالغة ..

لم تقل (عبير) شيئًا من هذا وهى تتحسس

الخنجر بأناملها ، لكن عينيها قالتا الكثير ، وقالت عينا المأمور أكثر ..

ـ « الآن يا (باتريك) أو تموت اليوم بالذات .. »

وجاء جندى إلى القاعة ، لم تدر متى ولا كيف استدعاه المأمور ..

قال له المأمور دون أن يبعد عينيه الناريتين عن (عبير) :

ـ « خُذْ (باتريك) إلى محبس (ماريان) ، وتأكد من أنه سيقتلها بوحشية وبرود تامَين ! »

* * *

١١ ـ تسوية الحساب ..

وعلى باب الزنزانة هرعت (بياتريس) ـ دامعة العينين ـ تعترض طريق (باتريك) بكفيها ، وصاحت :

ـ « لا تلمسها ! أنت لن تلمسها ! »

لقد بلغها الخبر ، ومن الجلىّ أنها تحسبه متحمسًا لأداء هذه المهمة .. لكن (باتريك) لم يكن بحاجة إلى من يطالبه بعدم لمس (ماريان) ، لأنه لن يلمسها بالتأكيد ، ولا يدرى كيف يخرج من هذا المأزق ..

بعد لحظة تفكير ، اتخذت (عبير) قرارها ..

ألقت بالخنجر على الأرض ، والتفتت إلى الجندى :

ـ « يمكنك إبلاغ المأمور أن (باتريك) لم يجسر على قتل امرأة عجوز بلا سلاح .. فليتخذ ما يريد من إجراءات .. »

شهقت (بياتريس) ، وضربت صدرها بكفها .. إنها لم تتوقع هذا .. لم تكن تريد قتل (ماريان) ، لكنها كذلك لا تريد أن يعارض (باتريك) أباها .. إن معنى هذا أن قصته قد انتهت .. ولم يعد هناك غد ..

قال الجندى فى صرامة مهذبة ، وهو يسدّد رمحه إلى صدر (باتريك) :

- « فى هذه الحالة يا سيدى ، أرجو أن تسمح لى بأن تكون سجينى .. سنقابل المأمور معًا ! »

- « كما تحب .. »

ودون أن ينتظر مال على أذن (بياتريس) ليهمس لها :

- « لو شئت نجاتى ، فعليك أن تتأكدى من إبلاغ (روبين هود) .. »

وأدار ظهره مبتعدًا مع الحارس ..

* * *

كانت عواطف المأمور متعادلة هادئة حين أبلغه الحارس بما كان من (باتريك) .. لقد كان الرجل كما هو واضح يتوقع هذا ..

قال لها وهو يقتطع شريحة أخرى من اللحم النيئ ، ويدسها فى فمه :

- « إذن يا (باتريك) قد انتهى الأمر .. سوف نقطع رقبتك عصر اليوم .. سيكون هناك بعض التعذيب أولاً لأن هذا سيبهج الجماهير ، ثم إنه سيساعدنا على معرفة ما لديك بالضبط .. »

وفى الحال دخل الغرفة أربعة حراس شاكى السلاح ، ومهمتهم المحدّدة هى اصطحاب (عبير) إلى مكان التعذيب فالقتل ..

قال المأمور دون أن ينظر لـ (عبير) :

- « وداعًا يا (باتريك) .. إن (بياتريس) ستتغلب على آلامها .. »

وأشار إلى الحراس ..

* * *

قاموا بربط (عبير) إلى منصة عليها عمود خشبى ، تشبه تلك المخصصة لحرق (جان دارك) فى الصور ..

إنها تجربة مثيرة لـ (عبير) حقًا .. لقد جرّبت الإعدام من قبل فى برج (لندن) فى عهد (هنرى الثامن) .. الآن تجرب التعذيب ثم الإعدام فى القرن الحادى عشر .. وأمام المأمور شخصيًا ..

واحتشد المارة الدهماء وقد بدا الاستمتاع على وجوههم .. وبعضهم راح يطالب بقتلها فى كراهية بالغة ، برغم أنه لا يعرف على الإطلاق جرمها أو شخصيتها ..

من جديد يتكرّر مسلسل غباء العامة وتوحشهم السادى بلا مبرر ..

ومن جديد وقف الرجل ذو الطرطور يقرأ من اللفافة الكبيرة ـ التى لا أدرى متى كتبوا فيها كل هذا ـ قرار إدانة (باتريك) بتهمة الخيانة والتآمر و ... و ...

ثم جاء الجلاد ليبدأ عمله الشاق ..

كان الجزء الأول من البرنامج يتضمن الحرق بالحديد الساخن ، وعلى الفحم استقرت ثلاثة أسياخ حديدية تسخن حتى تحمرّ ، وتتصاعد رائحتها المستفزة الكريهة ..

حتى هذه اللحظة كانت (عبير) تتوقع أن الأمر غير حقيقى .. هذه خيالات من عالم (فانتازيا) المتشابك .. لكن هذا خيال له رائحة وله درجة حرارة تلسع .. ما الفارق بينه وبين الواقع إذن ؟

إن كل الفلاسفة الذين يتحدثون عن كون هذا العالم وهمًا ، وعن كون الألم وهمًا ، سيكفون عن تفلسفهم عند أول لسعة من طرف لفافة تبغ مستعلة لأيديهم ، أو انغلاق أول باب على أصابع أقدامهم ..

وبالنسبة لـ (عبير) لم يكن يهمها إلا أن الألم قادم فعلاً .. سواء بفعل النار أو بفعل بعض (البايتات) فى ذاكرة الكمبيوتر العشوائية ..

قالت من بين أسنانها وهى ترمق حماس الجلاد :

ـ « (دى ـ جى ـ ٢) .. كف عن المزاح من فضلك ! »

* * *

وحين رفع الجلاد يده بالسيخ الحديدى الموشك على الانصهار ..

وحين حبس الجمهور أنفاسه لسماع صرخة السجين ..

عندها فقط طار السهم فى الهواء ليثقب عنق الجلاد ، ويتهاوى هذا على الأرض بعد ما دار حول نفسه ..

وصاح صائح من الجمهور :

ـ « كما فى كل مرة ! من المستحيل أن تكتمل عملية تعذيب أو إعدام فى هذه المدينة المشئومة ! »

الواقع أن شعوره يشابه شعورنا حين تحذف الرقابة جزءًا من فيلم شائق لأنه يحوى قدرًا زائدًا من العنف ..

والطريف فى الموضوع أن السهم لم يأت من بين الجماهير كما لاحظتم .. لقد جاء من القلعة نفسها ..

★ ★ ★

كان أول من فهم اتجاه السهم هو المأمور ..

استدار إلى القلعة ليرى ما هنالك ، ولم يكن ما رآه محببًا .. لقد كانت أسوار القلعة كلها مدججة باللون الأخضر .. بعبارة أدق : كان عدد هائل من رجال (روبين هود) يقفون هناك ، وحتى على طابية الحراسة ، وكلهم يصوّب سهامه إلى الخارج .. نحو رجال المأمور الذين وقفوا يرقبون عملية التعذيب ، ونحو المأمور ذاته ..

صاح المأمور :

ـ « تبًا ! كيف فعلوها ومتى ؟

لكن أحدًا لم يملك إجابة .. إن القلعة كانت مليئة بالحراس ، وحولها الخندق الملىء بالماء ، حتى لتعجز الطيور نفسها عن اقتحامها .. فمتى تم هذا ؟

ومن أعلى الطابية تدحرج جسد أخضر عملاق يتدلى بحبل على طريقة (طرزان) الشهيرة .. تأرجح حتى صار إلى جوار (عبير) على المنصة ، فمزق قيودها بخنجر ، ثم واصل رحلته ليهبط وسط الجماهير ..

كان هذا هو (جونز) الصغير ..

تلفت المأمور حوله فى حقد .. لم يستطع أن يصدق أو يفهم ، وعجز عقله عن الوصول إلى حلٍّ .. للمرة الأولى يجد نفسه فى العراء بينما قلعته الحصينة محتلة ..

من أعلى السور ظهر الراهب (تاك) ملوحًا بعصاه ، وصاح :

ـ « كما ترى يا سيدى المأمور .. أنت ورجالك فى وضع غير محبب على الإطلاق ، وإننا لنطلب منك الاستسلام حقنًا للدماء .. »

تحول وجه الذئب إلى وجه شيطان ، وتلفت حوله كالمسعور ..

كان هناك واحد من رجاله يركب فرسًا ويرمق ما يحدث فى غباء ..

وثب عليه فأسقطه من على المسرح ، ثم امتطى الفرس بدلاً منه ، وهرع يشق زحام الناس بقوة الفيضان ومضىّ الشهب ..

ومن جديد راح الدهماء يهللون له مشجعين ..

ورفع أحد الرماة قوسه يبغى إصابته من عل ؛ لكن الراهب (تاك) أوقفه فى حزم واضعًا يده على معصمه :

ـ « دعه ! إن نهايته يجب أن تكون على يد (روبين) ! »

وفى الآن ذاته هبطت (عبير) من على المنضدة .. لقد تصلبت مفاصلها لكنها راغبة بحق فى الرحيل ..

لم يكن أحد رائق البال كى يوقفها ، وحتى الجماهير الحمقاء راحت تهلل لها .. الجماهير التى كانت تطالب برأسها منذ خمس دقائق ..

وجاء (جونز) الصغير على جواد أبيض مدجج بالدروع ، وقال لها وهو يعينها على الركوب أمامه :

ـ « هلم يا (روجر) أو (باتريك) ـ يعلم اللّه اسمه الحقيقى ـ فإن هناك مبارزة لا بد أن نراها .. »

ـ « وهل يتحملنا الجواد نحن الاثنين ؟ »

ـ « لا بد أن يفعل .. لا وقت لدينا كى نبحث عن جواد آخر .. »

وهكذا انطلق الرجلان بجوادهما عاثر الحظ .. نحو غابة (شيروود) ..

* * *

وهناك عند حدود الغابة ، وقفا فوق مرتفع يرمقان الطريق الوحيد للخروج من (نوتنجهام) والذى يمرّ قرب الغابة المسكونة بقطاع الطريق ..

ترجلا عن الحصان الذى أوشكت سيقانه أن تتهشم ، ووقفا يرمقان الطريق .. لم تكن هناك حوافر خيل حديثة ، ولا سحابةَ غبار فى الأفق ..

تساءلت (عبير) :

ـ « ألم يمرّ المأمور من هنا بعد ؟ »

ـ « نعم .. فى الغالب .. لا بد أنه قام بدورة بغرض تضليل مطارديه .. »

تحسست آثار الحبال الغليظة على معصميها ، وسألت (جونز) :

ـ « كيف احتللتم القلعة بهذه السرعة ؟ »

ـ « ليس من دون معاونة خارجية .. إن تلك الفتاة (بياتريس) تهيم بك حبًا ، وقد أرسلت لنا وصيفتها برسالة منذ ثلاث ساعات .. إن الرسالة تقول لنا إن حراس القلعة سينامون جميعًا بفعل المخدر الذى ستدسّه لهم فى الشراب ، وهكذا يمكننا عبور الخندق من الجهة الأخرى والسيطرة على المكان .. أكدت لنا الرسالة أن المأمور حريص على حضور تعذيبك بنفسه .. وأن زنازين المساجين رفاقنا ستفتح جميعًا .. »

ـ « وصدقتموها يا حمقى ؟ »

ـ « إن الفتاة (بياتريس) تختلف عن أبيها .. وكان شرطها الوحيد هو ألا نؤذى الرجل .. كانت تريد إنقاذك بأى ثمن .. وكذلك نحن .. »

ـ « أنتم ؟ »

ـ « بالتأكيد .. لقد رأيناك ورأيتنا اليوم فى أثناء مباراة الرماية .. كان بوسعك الكلام لكنك آثرت الصمت ، ثم عرفنا عن طريق الحمام الزاجل أنك ستعدم لأنك رفضت أن تذبح (ماريان) .. لقد صرت منا .. لا ندرى إن كنت ضدنا فيما سبق أم لا ، لكنك اليوم قد صرت منا .. »

واهتزت (عبير) من هذه المعلومات ..

لقد انتصر الحب فى قلب (ماريان) على عاطفة الأبوة .. لا .. ليس هكذا بالضبط .. لقد انتصر الخير على الشرّ حتى لو كان هذا الشرّ هو أبوها ..

لم تدر (عبير) من قبل .. كم أن (باتريك) هذا ساحر للنساء ، وتساءلت عما تراه هاته الحمقاوات فى سحنته المخيفة الفظة .. لكن الحب أعمى على كل حال ، وهو (ماكيير) بارع يجيد إخفاء التجاعيد والعيوب الجسدية والروائح ..

سألت (جونز) وهى تمتشق حسامًا ناولها إياه :

- « لماذا ننتظر المأمور إذن ؟ لقد وعدتم الفتاة بألا تؤذوه .. »

- « نحن لن نؤذيه .. هو الذى سيؤذى نفسه .. »

لم تفهم ، لكنها آثرت الصمت ولم توجه أسئلة أكثر ..

قال (جونز) وهو يعدّ السهام فى جعبته :

- « إن المأمور يحاول الفرار إلى مقاطعة أخرى يحكمها أصدقاؤه النورمان ، ومن هناك يعود بجيش جرار لاسترداد قلعته .. »

- « وتحاولون منعه ؟ »

- « لن نمنعه .. هو سيمنع نفسه .. »

وابتسم فى خبث :

- « ولم تجد الوقت الكافى للتساؤل ، لأن سحابة غبار بدأت تتعالى فى الأفق ، ثم ظهر جواد المأمور .. كان راكبه متعجلاً متوترًا كثير الالتفات للوراء ..

أخرج (جونز) الصغير البوق من نطاقه ، ونفخ فيه ..

تووووووووت !

دوّى الصوت الحزين المرير عبر السهوب ، ورجَعت الوديان لحنه العميق ، فأجفل المأمور وجواده ..

ومن بين الأشجار خرج (روبين هود) ..

كان يحمل رمحًا طويلاً ويمتطى حصانًا شامخًا كخيول الأساطير ، وعلى وجهه نظرة حزينة مريرة .. لكنها مفعمة بالتصميم ..

ووقف الحصانان على مسافة عشرة أمتار ، يتبادل راكباهما النظرات ..

أخيرًا - بعد ثلاثمائة عام - نطق (روبين هود) :

- « الآن أنا وأنت وحدنا أيها المأمور ، ومن دون رجالنا .. »

صاح المأمور بصوت مرتجف :

- « حقًّا أيها الخارج على القانون .. »

- « وعداوة عشرات الأعوام تنتظر الدماء لترتوى .. »

- « أحسنت القول أيها الخارج على القانون .. »

- « لقد وعدنا ابنتك بعدم المساس بك .. فلو أردت أن تمرّ دون قتال ، أضمن لك هذا .. لن يتعرض لك أحد .. أما لو أردت تسوية ما بيننا من حساب ثقيل ، فالوقت وقت ذلك .. »

- « بالتأكيد أرغب فى تسوية الحساب ! »

- « إذن اشهر سلاحك ، واستعدّ ! »

* * *

قال لها (جونز) :

- « هل رأيت يا (باتريك) ؟ قد منحنا الرجل كامل حريته ، لكنه لن يترك فرصة الانتقام من (روبين هود) تمرّ .. »

- « وهل يتصارعان ؟ إنه أقوى من (روبين) بمراحل .. »

- « لكن (روبين) يمقته عشرات المرات أكثر مما يمقت هو (روبين) .. »

- « أشك فى هذا .. إن (روبين) قد هدم أحلامه فى حكم البلاد ، وسفّه كبرياءه ، وأهانه مرارًا .. إن الرجل يملك ألف سبب كى يكره (روبين) كما يكره الأتقياء جهنم .. »

- « إذن يكون الأقوى هو الأفضل .. »

* * *

وفى الخلاء الملاصق للغابة ، بدأت المعركة ..

عينا الرجلين متجاذبتان كمغناطيس ، وقد شهر (روبين) رمحًا وشهر المأمور سيفًا ، وراح الجوادان يدوران حول بعضهما فى تؤدة ..

يقول المأمور من بين أسنانه :

- « لقد أرهقتنى كثيرًا جدًّا يا (روبين) .. كنت كابوس حياتى .. »

ويقول (روبين) فى مقت :

- « قتلت أبى وخطفت أختى ، وعذبت قومى .. لم أمقت أفعى وجدتها فى فراشى مقتى لك .. »

وينقض (روبين) بالرمح ، لكن المأمور يراوغه ، ثم يهوى على قناة الرمح بسيفه فيسقط من كف (روبين) ..

- « ردىء جدًّا يا (روبين) .. لم أدر كم تقدمت أنا فى السن إلا حين رأيت وجهك وكنت قد نسيته .. »

- « لست رديئًا إلى هذا الحدّ .. »



وفى الخلاء الملاصق للغابة ، بدأت المعركة .. عينا الرجلين متجاذبتان كمغناطيس ، وقد شهر (روبين) رمحًا وشهر المأمور سيفًا ..

يقولها (روبين) ويمتشق سيفًا من نطاقه ، وينقض على الرجل فيبدأ الطعان .. الحديد يرتطم بالحديد ..

لولا أن (عبير) تفهم خداع البصر ، لحسبت أن السيوف تومض لحظة ارتطامها ، لكن هذا التأثير مقصور على فيلم (حرب الكواكب) ، وعلى سيوف الليزر بالذات ..

طعنات .. طعنات ..

ثم يهوى السيف ليمزق كتف (روبين) الأيسر ..

يتأمل (روبين) جرحه .. يتذوق الدم بطرف لسانه ثم يبصقه ويهتف :

ـ « تالله إنها لضربة جميلة ! ولكن ما قولك فى هذه ؟ »

ويدير السيف فى نصف قوس ليهوى على خدّ المأمور ، فيجرحه جرحًا بالغًا ، لكنه غير خطير ..

ـ « أحسنت أيها العجوز ! أرنى المزيد ! »

وتتوالى الضربات ..

ضربات .. ضربات .. تفادى .. كرّ .. فرّ ..

الشمس تنحدر نحو الغرب بسرعة فائقة ، وقد بدأ الرجلان يتحولان إلى رسمين بالسلويت الأزرق المختلط بالحمرة ..

يكبو جواد المأمور فيسقط حمله على الأرض ..

يحاول هذا أن يضرب سيقان جواد (روبين) ليسقط ، لكن (روبين) رحمة بالجواد يترجل ، ويبدأ فاصل جديد من العراك على الأرض هذه المرة ..

طعناتٍ .. طعنات ..

لا بد أن الأمر استغرق نحو ساعة ..

وشعرت (عبير) بالملل الشديد ، لكنها كانت تدرك أن المأمور هو الأقوى وكفته الأدنى إلى الفوز ..

لقد شاخ الرجلان حقًا ..

ها هى ذى خطواتهما أقرب إلى خطوات الثملين ، وقد صارت ضرباتهما تفتقر إلى التركيز ، وازدادت لحظات الالتحام الجسدى بينهما أكثر من اللازم ، كأن كلاً منهما يحاول أن يلتقط أنفاسه بضع ثوان على جسد خصمه ..

وأدركت من أنفاس (جونز) الثقيلة أنه بدأ يقلق بصدد النتيجة ..

* * *

وانقض (روبين) بسيفه على المأمور مزمعًا طعنة قوية مزلزلة ، لكن هذا كان حذرًا .. إن طباع الذئاب لم تفارقه ..

إذ سرعان ما ركع على ركبة واحدة ، ورفع سيفه فى الهواء ، وسرعان ما غاص هذا حتى منتصفه فى بطن (روبين) ..

لا تدرى من صرخ ؟ هى أم (جونز) أم (روبين) ؟ ربما صرخ الجميع ، وشعرت بساقيها تحملانها جريًا إلى حيث تدور المعركة ..

لا تدرى أيضًا متى نهض المأمور وركب حصانه ، ثم همزه كى ينطلق مبتعدًا بأقصى سرعة .. ومن فرط الإجهاد نام على ظهر الحصان ، جاعلاً وجهه على معرفته ..

وتوارى عن العيون ..

وتوسّد (روبين) فخذ (جونز) الصغير ، وهو يلهث ، وقد غمر العرق جبينه .. وبركة من الدماء تتجمع حوله ..

صاح (جونز) بلهجة كالبكاء :

ـ « أنت بخير يا (روبين) ! »

قال (روبين) بصوت كفحيح الثعابين :

ـ « حقًّا بخير .. ما دمت أموت وعيناى على (شيروود) أنا بخير .. »

ـ « لن تموت .. »

ـ « صه ! لا داعى لإضاعة الوقت .. أين قوسك ؟ »

ناوله (جونز) القوس والسهم ، فأمسكهما بيد ترتجف دون انقطاع ، وصوب السهم إلى السماء فوق الغابة ..

ـ « سأطلق السهم الآن .. وعليك أن تجده فى الغابة ، وحيثما تجده مغروسًا يكن قبرى .. »

لم يعارض (جونز) أكثر ، فالرجل ميت حقًّا .. لا داعى للمكابرة إذن .. ولا داعى لإضاعة هذه الثوانى

الثمينة فى عبارات من نوع : (أنت بخير ـ يا رجل لا تقل هذا ـ ستعيش حتى توارينا التراب جميعًا) ..

تشاك !

وانطلق السهم فى السماء فوق ذوائب الأشجار ، ثم هوى ..

كان الظلام قد غمر الكون الآن ، لكن قمرًا حزينًا كان يضىء وجه قاطع الطريق العجوز ..

ـ « سيعود الذئب ، وعليكم أن تستعدوا من جديد ..»

ـ « ليكن يا (روبين) .. »

ـ « اعتنوا بـ (ماريان) و (بياتريس) .. »

ـ « ليكن يا (روبين) .. »

ثم أغمض البطل العجوز عينيه ، وخمد السرّ الذى يبقينا أحياء مدركين لكينونتنا ، وبدأت (عبير) تتنبه من المشهد الأليم ..

* * *

هنا شعرت بيد تجذب كمها فى كياسة ..

نظرت للوراء لتجد (المرشد) يبتسم ، وهو يداعب قلمه بتوتر :

- « هل حان الوقت يا (مرشد) ؟ »

- « طبعًا .. لقد انتهى (روبين هود) ، فماذا تنتظرين ؟ »

قالت فى غيظ ، وهى تنهض لتواجهه :

- « كانت معلوماتى هى أن (روبين هود) هو المنتصر الأخير .. حسبت أن الخير سيفوز بالمعركة .. »

قال بطريقته الباردة اللامبالية :

- « إن المعارك مستمرة للأبد بين الخير والشر .. السؤال هو من يكسب الحرب لا المعركة ، ثم إننا لسنا فى السينما حيث النصر للخير دومًا .. ولو فكرت فى الأمر بعقلانية محضة لوجدت أن المأمور أقوى وأكثر عافية .. من الطبيعى أن يربح المعركة أمام خصم أنهكته السنون والصراع ..

إن الحرب لم تنته .. ولسوف يعود قطاع الطريق للعمل فى غابة (شيروود) تحت زعامة (جونز) الصغير ، وتستمر أسطورة (روبين هود) الذى لا يقهر يرددها الفلاحون حول النيران ليلًا .. »

تساءلت نافضة يديها من دم وهمى :

- « ولماذا ؟ وماذا كنتم ستخسرون لو مات المأمور ؟ »

- « لا بد للشرّ من أن يوجد .. هكذا يجىء أبطال من طراز (روبين هود) و(روب روى) ليكافحوه .. لولا الشرّ لما كان الخير ، ولولا الظلام لما عرفنا معنى الضياء .. هذه أمور بديهية قتلها الفلاسفة بحثًا ، حتى لم يعد ذكرها سوى نوع من الابتذال المجانى .. »

ثم نظر لـ (جونز) الدامع الذاهل ، وقال :

- « بعد إذنك .. إن الأخ (باتريك) راحل معى الآن .. »

واتجه مع (عبير) مبتعدين عن المشهد الدامى ، وعن غابة (شيروود) التى ارتوت أشجارها بدماء عاشقها ..

قالت (عبير) راجفة :

- « على كل حال .. تظل النهاية مؤثرة بحق .. أن يطلق السهم فى الهواء ، ويطلب أن يدفنوه حيث يسقط .. »

ـ « ليس بالضبط .. إنه لن ينال ما تمناه للأسف .. »

ومن جيبه أخرج السهم .. السهم الذى أطلقه (روبين) فى السماء ، وقال :

ـ « لقد سقط فوقى ! انغرس فى حذائى وكاد يمزق إصبع قدمى ! لكنى كنت حسن الحظ .. »

وألقى بالسهم على الأرض ، وقال :

ـ « من الخطر اللعب بأشياء كهذه ! »

* * *

فى القصة القادمة تدخل (عبير) عالمًا مخيفًا تسافر إلى (إيران) لتعرف فرق (الفداوية) والسفاحين الذين ذهب المخدر بألبابهم ، وتقابل (عمر الخيام) فى عالم لا يمكنك النوم فيه دون أن تُقتل ..

* * *

(تمت بحمد الله)

لا تدخلوا شيروود !



د. أحمد خالد توفيق

لكم يا سادة أقدم نصيحة غالية لن تعرفوا قيمتها إلا فيما بعد : لا تدخلوا (شيرودد) !.. لا تدخلوها خاصة إذا ما كنتم من رجال المأمور ، أو تجارًا أثرياء ، أو من أكلة مال اليتامى . أما إن كنتم رقيقى الحال كارهين للظلم فمرحبًا بكم ..!

القصة القادمة

قلعة السفاحين

الثمن في مصر ١٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٢ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٨٥٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢